

الجواري

دراسة وتراجم

جَيّور عبدالنور
محمود موسى

تقديم ومراجعة
د. جمال الأزهرى

الجواري

دراسة وتراجم

تأليف

جبّور عبد النور

محمود موسى

تقديم ومراجعة

د. جمال الأزهري

الكتاب: الجوّاري.. دراسة وتراجم

الكاتب: جبّور عبدالنور، محمود موسى

تقديم ومراجعة: د. جمال الأزهري

الطبعة: ٢٠٢٢

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مذكور- الهرم

– الجيزة - جمهورية مصر العربية

هاتف: ٣٥٨٢٥٢٩٣ – ٣٥٨٦٧٥٧٦ – ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس: ٣٥٨٧٨٣٧٣

<http://www.bookapa.com>

E-mail: info@bookapa.com



All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة: لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الناشر.

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

عبدالنور، جبّور / موسى، محمود

الجوّاري.. دراسة وتراجم / جبّور عبدالنور، محمود موسى، تقديم ومراجعة:

جمال الأزهري

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

١٥٤ ص، ٢١*١٨ سم.

التقييم الدولي: ٧ – ٣٤٠ – ٩٩١ – ٩٧٧ – ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع: ٢١٠٧٩ / ٢٠٢١

الجواري

دراسة وتراجم

@booka

وكالة الصحافة العربية
«ناشرون»



@booka.

تقديم

الجارية في الشرع الإسلامى هى المرأ التى أخذت أسيرة في الحرب، شريطة أن تكون غير مسلمة؛ لأنه لا يجوز لأى سبب من الأسباب أن تسبى المسلمة وتسترق. والجواري لعبن أدوارا كبيرة في التاريخ الإسلامى، لدرجة أن ابن حزم قارن بين الدول اعتمادا عليهن كأساس للمقارنة، فقال: " لم ينل الخلافة في الصدر الأول من كانت أمه من الإماء (أي الجواري) سوى يزيد وإبراهيم بن الوليد، ولم ينل الخلافة في الدولة العباسية ممن كانت أمه من الحرائر سوى العباس السفاح والمهدي والأمين، ولم ينل الخلافة في دولة بنى أمية بالأندلس من كانت أمه حرة أصلا".

وقد حفلت قصور الحكام في الدولة الإسلامية على امتداد العصور بالجواري ومن كل لون وصنف، وبين أروقة القصور نشب الغرام بين بعض الأمراء والخلفاء والسلاطين وبين الجواري، والحكايات التي تروى عن غرام الحكام والسلاطين لجواريتهم كثيرة وعجيبة، وبالرغم من ذلك ينظر المجتمع العربي الإسلامي إلى الجواري، نظرة متناقضة فهنّ تارة بضاعة وتارة بشرًا، غريبّات وعربيّات، لكنّ جواري الخدمة لا يكدن يظهرن إلا ظهورًا عابرًا علي هامش الحياة، وقد يكتفي أبناء الطبقات الوسطى بجارية أو اثنتين، علي عكس القصور وبيوت الأغنياء التي ربّما لم يعرف أصحابها عدد الجواري فيها، ولم يروا وجوه بعضهنّ. أمّا الأخريات فمعظم أخبارهنّ تأتي في سياق الحديث عن الخلفاء والملوك والأمراء، لكنّ اللافت للنظر أنّ

المؤرخين يتحدثون عنهنّ باحترام كبير، ويخلعون عليهنّ الألقاب السنيّة مثل السيّدة، السلطانة، أمّ الملوك، بل إنّ كثيرات منهنّ دفنّ في مقابر الخاصّة.

وقد ارتبط عالم الجوّاري والغلمان بالحياة السياسيّة في الحضارة العربيّة الإسلاميّة بمختلف حقبها نتيجة لعلاقة مجموعة هامة من هذه الفئة بأهل السياسة والحكم، ومن المعروف أنّ الحضور الفعلي للجوّاري كان مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بالزمان والمكان، إذ كانت جواري العصر العباسي في المشرق والعصر الأموي في الأندلس أكثر تأثيراً في السادة من بقية العصور، حيث برزت في أواسط العصر العباسي أعداد كبيرة من الجوّاري داخل البلاط العباسي يقمن بخدمة زوجة الخليفة أو الخليفة شخصياً أو لأمّ الخليفة، وفي بعض الحالات كن يتواجدن جميعهن في قصر الخليفة معاً، وقد تعدّدت أدوار الجوّاري في القصور وتنوّعت بتنوّع الحقب التاريخيّة، ولكنّ المحظيّة، التي جمعت كلّ ما أرادته الثقافة في الأنثى، وحدها هي التي استطاعت أن تخلّد اسمها في كتب التاريخ إذ أرادت الثقافة من المرأة أن تكون جميلة، ومطوّاعة، وولودة، وضعيفة أمام الرجل لا حياة لها دونه، وشاءت الثقافة السائدة أن تجعل الرجل مستسلماً أمام هذا الصنف من الجوّاري، ضعيفاً أمام دموعهنّ، ومسلماً لهنّ مقاليد حياته، فكان هذا مفتاح تدخّل النساء محظيات كنّ أو أمّهات في عالم السياسة.

وعلى سبيل المثال فقد اشتهر الأندلسيون بتسامحهم في مخالطة الجوّاري للرّجال ومنادمتهم في حين يذكر ابن حزم في طوق الحمامة أنّ الحرّة كانت لا تخرج إلّا بوجود حرس في الأسر المحافظة والمتشدّدة، بل إنّ بعض الجوّاري امتلكن من النّفوذ والسّلطة ما أتاح لهنّ التّدخّل في كلّ

صغيرة وكبيرة من شؤون الحكم، مثل طروب جارية عبد الرحمن الأوسط، وصبح جارية المستنصر، واعتماد جارية المعتمد، ولعل الجواري وجدن في هذه الحرية وهذا النفوذ تعويضاً عن استرقاقهنّ.

ومن الأسباب كذلك كلف الأمراء والخلفاء والملوك ببعض الجواري كلفاً شديداً حتى إنّ الناصر بنى مدينته الخالدة الزّهراء تكريمًا لجاريته وأطلق اسمها علي هذه المدينة التي فاقت شهرتها الأمصار قاطبة وخلّدها الشّعر والتّاريخ وخلّدا معها اسم هذه الجارية، وقصة المعتمد مع جاريته اعتماد التي جبل لها طين حديقته بالمسك مشهورة، بل وصل من شغف الأسياد بالجواري أن امتلكن سطوة عليهم ورفضن منحهم قلوبهنّ ولا حتّى أجسادهنّ كما حدث لسعيد بن منذر حين رفضت جاريته أن تهبه قلبها أو جسدها، بل إنّها امتلكت قرارها برفض عتقها مقابل زواجه بها، ويلاحظ أن الجواري سرن في تناغم مع المجتمع تصاعدياً وتنازلياً. وقد أسهمت الجواري في مختلف جوانب الحياة الثقافيّة بشقيّها الماديّ والمعنويّ، وتفوّقن في مجالات عديدة في آن معاً، والأدلة على ذلك كثيرة نجدّها في كتاب الأغاني للأصفهاني، وفي الدّخيرة لابن بسّام، وأيضاً عند وابن عذاري في البيان المغرب، وقد تحدث عن جارية لابن الكتّاني لا نظير لها، أجادت اللغة والأدب والخطّ والكتابة والغناء والرّقص والطّبّ وعلم التّشريح واللّعب بالسّيوف وغيرها من العلوم، ولم يتمكّن الملوك من شرائها لارتفاع سعرها، إلّا أنّ عبد الملك بن رزين تمكّن من شرائها بثلاثة آلاف دينار. وهذه الحكاية وغيرها، تؤكّد أنّ الجواري وصلن إلى مرتبة متقدّمة في الإبداع سواء في الشّعر واللغة أو الحساب والطّبّ والفلك وغيرها، أو في التّعليم،

بدليل إطلاق المؤرخين لقب أديبة أو شاعرة أو عالمة على جارية من الجواري، وهم لن يطلقوا أحكاماً كهذه علي نساء أنتجن القليل.

وقد كان للثقافة الموسوعيّة التي حظيت بها الجواري أبلغ الأثر في استقدامهنّ لتعليم أبناء الأمراء والخلفاء والملوك وأكابر رجال الدولة وذوي اليسار، ولم تنقل المصادر صورة أكثر احتراماً وإجلالاً وتقديراً للجارية أكثر منها معلّمة، كما كنّ يحصلن علي مكافآت سخية من مستخدميهنّ، وكلّما ازداد علم الجارية وحفظها زاد الطلب عليها وعلا شأنها بين الخاصّة والعامة، وقد أشار ابن حزم في الطوق إلي العديد من القصص حول ذلك، ولا سيّما أنّه هو نفسه تتلمذ علي أيدي الجواري، فنهل من علمهنّ الغزير، لكنّه في الوقت ذاته اطلع علي الكثير من أسرارهنّ ومكائدهنّ ممّا حدا به إلي الاعتراف بأنّه ممن يسيؤون الظنّ بالمرأة.

أما غناء الجواري فقد حظي بالنصيب الأوفر من الاهتمام، ومن أشهر المغنّيات الأندلسيّات العجفاء جارية الأمير عبد الرّحمن الدّاخل، وقمر جارية إبراهيم بن حجاج، وفي عصر الخلافة اشتهرت أنس القلوب جارية المنصور بن أبي عامر، وغيرهنّ.

وأهمّ كتاب عني بتسجيل المقطوعات الشعريّة التي غنّتها هؤلاء الجواري ابن فضل العمريّ في كتابه مسالك الأبصار، ومن اللافت للنظر أن جميع هذه المقطوعات خلت خلواً تاماً من أيّ لفظ بذيء أو فاحش، واشتمل أغلبها علي الغزل العذريّ والمديح، والقليل منها علي الشّكوي والحنين إلي أوطانهنّ، وقد وردت إشارات إلي أنّ بعض المغنّيات كنّ

شاعرات كذلك، من أمثال قمر وأنس القلوب، ومن الجواري الشاعرات كذلك: غاية المنى في المريّة، والعباديّة جارية المعتمد بن عبّاد في إشبيلية، وهند جارية عبد الله بن مسلمة في شاطبة، وغيرهنّ.

الكتب المشار إليها سابقا شكلت مراجع تراثية هامة عن الجواري وتاريخهن وآثارهن، والأدوار اللاتي لعبنها في التاريخ، ومن الكتب التي أفادت منها اختارت "وكالة الصحافة العربية - ناشرون"، كتابين نادرين لتهديهما للقارئ الشغوف، وقد ضمتهما معا بين دفتي كتاب واحد، فالكتابين متكاملين، أحدهما يقدم دراسة تاريخية وثقافية عن الجواري كظاهرة في التاريخ الإسلامي، بل في التاريخ الإنساني، وهو كتاب "الجواري" للأستاذ جَبّور عبدالنور، وقد صدرت الطبعة الأولى منه في القاهرة منذ حوالي ثلاثة أرباع القرن، أما الكتاب وهو "أشهر الجواري والمغنيات" للأستاذ محمود موسى، وهو أيضا كتاب نادر صدر قبل أكثر من ثلثي قرن، اختار صاحبه أن يجمع فيه من بطون كتب التراث، تراجم حياة ثلاثين جارية ومغنية شهيرة، وأخبارهن وقصص غرامهن ومغامراتهن وحياتهن الخاصة والعامة وفنونهن وأغانيهن، وكلهن ينتمين لعصور قديمة باستثناء "ألمس" وهي "ألمظ" المغنية الشهيرة التي تزوجها أشهر مطربي مصر الخديوية وهو عبده الحامولي، وقد افتتح المؤلف كتابه بترجمة سريعة لحياتها، وكأنه يريد أن يقول أن سلسلة الجواري المغنيات التي اشتهرت في العصر العباسي، واصلت امتدادها حتى العصر الحديث، وقد اكتملت حلقاتها بألمظ أو ألمس كما يكتبها.

ولم يكن غريبا أن تضطلع الجواري بهذا الدور وأن يحظين بهذا

الاهتمام، فقد ذكرهن أحمد بك أمين في كتابه الأشهر " ضحى الإسلام " قائلا:

"نشر هؤلاء الجوّاري نوعاً من الثقافة كان لا بد منه في مثل مدينة العباسيين، وهو لا بد منه في كل مدينة، وأعني بذلك الفنون الجميلة، وما يتبعها من رقي في الذوق الفني؛ فقد كان بجانب الحركة العلمية في ذلك العصر حركة أخرى لا تقل عنها شأنًا، وهي الحركة الفنية من غناء وتصوير ورقص، والحق أن الناس شعروا إذ ذاك شعورًا قويًا بالجمال، وتفنّن شعرائهم (وخاصة مسلم بن الوليد، وأبا نواس) في وصف الجمال والولوع به، وقراءته من غير ملل".

وأخيرا فكتاب التاريخ طوى صفحة الجوّاري، وعصرنا الحديث لم يعد يعترف بوجودهن، لكن سيرهن الشائقة وأحاديثهن وحكاياتهن الممتعة تبقى هدفا لطلاب السمر والمعرفة، والباحثين عن الأسرار التي ظلت مخفية قرونا لكن التاريخ باح بها ليؤكد دورها، وهذا يثبت طرافة ومتمعة الكتابين الذين نتيهما لك عزيزي القارئ، متمنين لك قراءة ممتعة.

د. جمال الأزهري

الكتاب الأول

الجواري

تأليف

جَبَّور عبد النور

@booka

@booka.

الخدر العربي

جنة العربي

أحب العربي المرأة حبا شديدا لا تدانيه عاطفة أخرى من حيث العمق والعنف، وأسرف في ذلك إسرافا عظيما، فجعل منها ريحانة لقلبه في دنياه، ونعيما مقيما في أخراه ولم يَصُبْ إلى المجد والسؤدد صوته إليها. فكانت المرأة الجميلة جنته التي يحلم بها، ويضحّي من أجلها بكثير من راحته، ويستشهد في سبيلها باسم راضيا، ويأخذ من أجلها بالزهد أحيانا. فنعيمه عبارة عن عالم وسيع أنيق، فيه من الطبيعة المعتدلة المناخ أروع مشاهد، وفيه من النساء البارعات الجمال أقصى ما يبلغه خيال الشاعر المبدع. ومن العدل القول إن العربي الذي تمثل جنته أهلة بالحوار العين، الناعسات الطرف، كأنهن الدر المكنون، المطهرات العفيفات، لهو رجل بلغ حبه المرأة مبلغا عظيما حقا.

إن إكثار الجاهلي من عدد النسوة في خيمته أو منزله ثم تعدد الزوجات والسراري في الإسلام، كل هذا مظهر من مظاهر التدله العنيف. ولعله أيضا وجه من وجوه التقيد بالأساليب الحضرية التي أخذت بها الأمم الغالبة أيام المصريين والبابليين والآشوريين والفرس والإغريق والرومان. وللعرب بعض العذر في ذلك، لنزول القسم الأكبر منهم في منطقة جغرافية ملتهبة الأرض والسماء، تنضج فيها المرأة بسرعة كما تنضج الأثمار النادرة التي تزكو هناك.

الطبيعة سريعة العمل، جمّة النشاط، كما هي العادة في البلدان الحارة، فيقصر الزمن الذي يفرق بين أوائل النضج وأواخره، ويذبل الجمال باكرا لتراوح شباب المرأة بين الخامسة عشر والثلاثين، ولتلاشي هذا الشباب بعد ذلك فتبدأ الفتنة بالخبو عندئذ، إلى أن تصبح أثرا بعد عين في الأربعين، فتتحول المرأة إلى جدة أو مربية أو قينة من قينات المنزل، تعمل في ترتيبه والسهر على الطعام والنظافة، ويزهد الرجل في محاسنها الزائلة، ويتطلع جاهدا إلى ما يروي ظمأه إلى الجمال، أو يكون قد بدأ بالاستقاء من منابع الحسن قبل ذلك.

كان أقول العربيات الأصل أو المولد بطيئا بالنسبة إلى الغربيات الأجنبية اللواتي ولدن أو نشأن في البلدان المعتدلة أو الباردة. فإن تهافت هؤلاء كان خاطفا، يسرع الذبول إلى بشراتهم الصافية، ويدب الخمول في مفاصلهم، ويأخذ العرق بتخديد وجوههم، وتترهل أجسامهم، فتعفى على قسماتهم، وبذبلن ذبول الوردة المقطوعة من منبتها.

حدود الجمال

أحب العرب الجمال مطلقا لأن تذوقهم الحسن كتذوقهم الفنون الجميلة عامة والشعر خاصة، يتفلت من التخصيص، يحسون بالحلاوة والعدوبة واللطافة إحسانا غامضا لا يقيده تحديد، ولا تحصره تخوم. وتختلف أقيستهم باختلاف الأشخاص، لأن الجمال اعتبار ذاتي أو إحساس داخلي فردي، والعرب كسواهم من الشعوب التي أغرمت بالجمال، تذوقوه غامضا غير محدود، فلم يفسدوا مفاتن الطبيعة بتهاويل

الأوزان والألوان والأبعاد. غير أنهم تعارفوا على بعض شروطه، فجعلوا منها
أصولا عامة، وألحقوا بها الكثير من الفروع التي تقتضيها الأذواق الفردية.
في كتب الأدب صفحات عديدة عن هذه الأصول والفروع، فلا
يكتمل مصنف منها ما لم يضم بين دفتيه بعضها شعرا أو نثرا، مقتبسا من
أساطين الأدب، أو منقولا عن الاختصاصيين في فنون الجمال الذين خبروه
نظريا وعمليا، وأدركوا مدى كل صفة من الصفات وميزة من الميزات.
يؤثرون العباء الجسم، ولا يقبلون على الأجسام الرقيقة النحيلة
الخفيفة الوركين، أو ما يسمونها الزلاء. لأن نحافة الوركين في نظر الخبراء
منهم من الصفات المكروهة التي تنقص من أثمان الجوّاري، وتشيع في
حب الأزواج لزوجاتهم شيئا من الفتور. وأحبهن إليهن النحيلات الأعلى
الجسيمات الأدنى، أو كما يقولون، اللواتي أعلاهن قضيّب وأسفلهن كثيب،
أو من قال فيهن المعنى إسحق الموصلي:
ظباء كاليغافير كنوس في المقاصير وأدبرن بأعجاز كأوساط الزنابير
وغالوا في كره النحيقات، حتى استعاذ الشاعر بالله منهن، فقال:
أعوذ بالله من زلاء فاحشة كأنما نيط ثوبها على عود
كما أسرفوا في مدح الثقيلات الردف، وجاؤوا بما تأنف منه الأذواق،
ويأخذ المعاصرون على أنه من وجوه الهزء والسخرية. فمن غرائب
المخلوقات التي تستحق أن تكون أعجوبة العصور تلك الجارية التي فتن
بها صاحبها فقال فيها:

من رأى مثل حبتي تشبه البدر إذ بدا
تدخل اليوم ثم تدخل أردافها غدا

وفي اعتقادنا أن سواد العرب لم يشاطروا شاعرنا هذا في فهمه الجمال
وتذوقه هذا اللون العجيب المعجز، بل كانوا يؤثرون العباء، ويفضل
الجهابذة منهم المجدولة الجسم، ويقدمونها على سواها، ويطلب القيانون
في هذا النوع الأثمان الباهظة لأنها الزي الشائع المحبب إلى النفوس.
والمجدولة من النساء، في منزلة بين السمينية والممشوقة، ولا بد أن تكون
كاسية العظام والعروق في غير ترهل، ملساء الجلد بحيث تزلق اليد عنها.

البيضاء المفضلة

أما وقد دخلنا الخدر، وأقلقنا على العربي راحته، وأخذنا نتفحص ما
في كناسه من ملاحه وحلاوة، وأدركنا إدراكا عاما أية طلعة يفضل صاحبنا،
فلا بأس، أن نتفحص هذه المرأة عن كثب، ونتبين تقاسيم الجمال فيها
جزءا جزءا وعضوا عضوا تاركين ما لا يسمح لنا المكان بعرضه وتفصيله.
العربي الأسمر يفضل البيض من الجواري، ولا سيما الرقيقات البشرة،
الصافيات اللون، اللواتي يضرب لونهن بالغداة إلى الحمرة وبالعشي إلى
الصفرة، وخص السمر والسود أحيانا بالخدمة والسعي بين المنزل والسوق.
والبيض الصفر اللواتي جن بهن كن كثيرات العدد، بل هن الغالبات بينهن،
يحتفظن بظل الخدر، فلا يتعرضن لأشعة الشمس المحرقة التي تحيلهن
إلى السمرة. وليس تهالك النساء على الظل ببعيد عنا، فقد كن يتهربن من
الشمس، وما تتركه في جلودهن من آثار فضاحة، ويؤثرن الفئ، فسرديد

بغداد الظليلة الرطبة كانت أحب إليهن من الخيوط الذهبية التي تقطرها الشمس خلال سعف النخيل، وكان لكل منهم شمس تضيء نهاره تهديه طريقه في مضطرب حياته الكادحة، وشمس أو شمس يخبئها في الخدر لتنير له ليله، وتشيع في نفسه وجسمه الدفء. ولا شك أن الناثر الذي وصف إحداهن قد أجاد في تمثيل ما يحب العربي عندما قال: جلد من لؤلؤ رطب، مع رائحة المسك الأذفر، في كل عضو شمس طالعة.

غير أننا نسيء إلى الحقيقة إذا زعمنا أن العرب جميعا كانوا يفضلون البيض، فأمهات الفاتحين وزوجاتهم وأخواتهم وبناتهم كن سمرا، تشع في عيونهن آمال المستقبل الطالع، وأحلام الغد المشرق، ولكن البيض كن بضاعة جديدة، ولكل جديد بهجة ومقام، وإخواننا العرب يودون أن تمتزج سمرة الجزيرة بيقق الشمال.

لعل كثيرين قرأوا ما دار بين البيض والسمر من محاورات طريفة في حلقات الأدب أو مجالس المجون، حيث يتفنن كل فريق في إظهار فضائله، وعيوب خصمه. وقد أعجبنا ببراعة العرض، ودقة الحجة في ذلك الجدل الذي يعنف أحيانا بين الجنس اللطيف في حضرة الخليفة أو الأمير أو المولى، إلى أن ينتصر أحدهما بنكتة بارعة، أو بيت من الشعر، فيكافئ السيد جاريته المنتصرة ببدره من المال، ويطيب خاطر المنحدرة ببدره أخرى. فالمشادة عنيفة بين السمرة والبياض، وهي خصومة لما تنته، ولن تنتهي لأنهما لوانان من الجمال، ليس أحب من أحدهما إلا الآخر.

السوداء المستلطفة

غير أن هناك لونا ثالثا من الجمال لا يخطر لنا على بال، هو اللون الأسود الذي تسبغه الطبيعة على الزنجيات أو على الأقوام البيض التي طال مكثها في الأقاليم الحارة. فقد فتن كثير من العرب بالسود، وكان لهن شعراؤهن والمعجبون بهن، وارتقت بعضهن إلى مكانة رفيعة في المجتمع.

وقد قال الشاعر في غانية سوداء:

أشبهك المسك وأشبهته قائمة في لونه قاعده
لا شك إذ لـونكما واحد أنكما من طينة واحده
وهذا المسكو الطيب هما من خصائص السود، فكأن أجسامهن
صيغت منهما وحدهما، لذلك تردد هذا المعنى في كل ما نظم فيهن، منه
ما قاله بشار في جاريته:

وغادة سوداء براقه كالماء في طيب وفي لـين
كأنها صيغت لمن نالها من عنبر بالمسك معجون
وهذان الشاعران مقتصدان في حب السود، لأنهما لا يزهدان في
البياض والسمر، ولكن المغلاة دفعت آخر إلى القول:

أحب لحبها السودان حتى أحب لحبها سود الكلاب
كان لرواج سوقهن، وإقبال الرجال عليهن، ولغرام الشعراء بهن أن
أخذن بالتأنق، وعمدن إلى التصنع أسوة بشقيقاتهن البيض والسمر.
فقلدنهن في كل شئ حتى في الاكتحال، رغم أن الكحل لا يبدو عليهن

لسواد بشراتهم، مما دفع ظريفا من الشعراء إلى القول في إحداهن:
كأنها والكحل في مرودها تكحل عينيها ببعض جلدها
وهكذا نرى في سوق الجمال ألوانا وأشكالا، ولكل منها ميزة خاصة،
وطلاب متهاكون، بل نقرب من الواقع إذا قلنا إن كثيرا من الخدور
العربية كانت تضم كل هذه الألوان، وما يتشعب منها من بياض ممزوج
بالحمرة، إلى سمرة تقرب من البياض، إلى صفرة سنديّة وصينية ومغولية.
فإن مائدة الجمال التي تناول منها العربي غذاءه متسعة الأطراف، شاسعة
الأبعاد، بوسعه أن يأخذ منها ما يروق لذوقه العام، ولرغبته الطارئة. عرف
لكل واحدة من هؤلاء النسوة فضلها وسر حلاوتها. وشهد ما بينهن من
عداوة، وما في صدورهن من تحاسد وتنافس على اكتساب عطفه، وهو
راض بهن جميعا، وبما هن عليه من تسابق في إرضائه والفوز بعطفه. فإن
هذا التحاسد كان يدفعهن إلى تحويل كيدهن عنه إلى بعضهن، وإلى
التنافس في إظهار مفاتن جمالهن. وفي كلا الحالين يفوز السيد المولى براحة
البال وكمال المتعة.

الليل المنسدل

إن الطابق الذي أغرم به الشعراء في جميع عهودهم، وسعوا وراءه
جهدهم حتى أضلهم أحيانا المعاني السامية، فاكتفوا بالتزواج اللفظي، هذا
الطابق الشعري نجد له أثرا في فهم العربي جمال المرأة. فليس أحب إليه
من تلك التي يتلاقى فيها النهار بوضحه، والليل بقتومته: البشرة البيضاء
الناصعة، والشعر الفاحم. ففي تألف هذين اللونين وتجاورهما صورة فاتنة

تؤلف أبرع المشاهد وأحبها إليه. وأفضل ما يشتهيهِ هو انسداد هذا
الشعر الفاحم الطويل على الجسم البض. يلف بعضه بغلالته القائمة،
فينصع بياض ما تبقى منه. وتنجلي أمامه الصورة التي مثلها الشاعر بقوله:
بيضاء تسحب من قيام شعرها وتغيب فيه وهو جثل أسحم
فكانها فيه نهار ساطع وكأنه ليل عليها مظلّم
وهذا الشعر المنسدل لا يحجب أحيانا صاحبه حسب، بل يغزر
ويطول، وتعني به الماشطات حتى يستر أحيانا حاملته ومحبتها، كما حدث
للشاعر القائل:

نشرت عليّ ذوائبا من شعرها حذر الكواشح والعدو المحنق
فكأنني وكأنها وكأنه صبحان باتا تحت ليل مطبق
ومثيل الشعر بالليل قديم العهد، يرقى إلى أبعد من الشعر العربي،
ولا يزال يسيل على أقلام الناظمين إلى الآن، ومنهم أحمد شوقي القائل:
ودخلت في ليلين فرعك والدجى "

ولعله استعار التشبيه واللفظ من القدماء، بل الأصح القول استقاه
من قول شاعر قصي العهد معروف بابن المنذر، جاء فيه:

فأمسيت في ليلين بالشعر والدجى وشمسين من خمر وخذ حبيب
كان الشعر يضفر ثلاث ذوائب تنسدل على الظهر، وتسمى غدائر،
وتطول أحيانا حتى تبلغ موطأ القدمين وهو عادة ناعم الملمس سبط كث،
تنفق صاحبه في تسريحه وتطيبه قسما من وقتها، وتغالي في ضفره وتنسيقه

ليبدو فتنة للناظرين، كما قال الشاعر:

دعت خلايلها ذوائبها فجئن من فرقها إلى القدم

الغلاميات

غير أن الجواري اللائي عرفهن العهد العباسي، وجئن بعد أقول الذوق العربي الخالص، أخذن بالسطو على هذا الليل المنسدل تقليما وتشذيبا، متشبهات بالفتيان، وهن المطمومات الشعر المسميات بالغلاميات. وتعداهن هذا الزي إلى الحرائر في قصور الخلفاء والأمراء والقواد، فأخذت المرأة عهدئذ بقص الذؤابة إلى مستوى الرقبة، ويمد الوفرة حول الأذن والعقرب على الجبين، أو برسم طرة عليه. وذهب بعضهن إلى رفع شعورهن ورسم هيئات متعددة، وجعلن حول رؤوسهن عصاة مزركشة بالألوان، وكتبن عليها بالخيوط الذهبية أو الفضية شعرا أو آية كريمة. وأكثرهن يؤثرن الشعر الغزلي تقربا من مواليهن ومغالة في الفتنة، وقد رسم أحدهم على عصاة جارية له البيتين التاليين:

تمت! وتم الحسن في وجهها فكل شئ ما سواها محال

للناس في الشهر هلال ولي في وجهها كل صباح هلال

ويجعل بعضهم في عصابات الجواري درا، ينثرونه بأشكال هندسية أو ينسجون به خطوطا وحروفا وكلمات. ويجد الشعرا في مثل هذه العصابات موضوعا شائقا للنظم والغزل، فيرون مثلا أن الدريزدان بالوجه الذي تحته كقول أحدهم:

وإذا الدر زان حسن وجوه كان للدر حسن وجهك زينا

وغالين أحيانا في هذه العصابات المزركشة المعرشة بالرسوم والخطوط وفي رفع شعورهن تاجا فوق مفارقهن، مما أثار المحافظات، فأعملن ألسنتهن في النقد والتقريع، كتلك الأعرابية التي دخلت على حمدونة بنت الرشيد، فلما خرجت سئلت عنها فقالت: " وما حمدونة.. والله لقد رأيتها، وما رأيت طائلا. كأن بطنها قربة، وكأن ثديها دبة، وكأن... وكأن وجهها وجه ديك قد نفش عفريته، يقاتل ديكا ".

وأعرابتنا هذه التي وفدت على حمدونة المترفة الغارقة في فنون الرخاء والأزياء تمثل أفضل تمثيل المدرسة النسائية المحافظة، كما أن ابنة الخليفة الرشيد ترمز إلى المدرسة المتطرفة التي تذهب في الغواية والتجديد كل مذهب. ولقد تزوج المتوكل من قرشية هي ريطة بنت العباس بن علي فسألها أن تطم شعرها وتتشبه بالجواري المملوكات فأبت عليه، فهددها بالطلاق، فاختارت الفرقة على اتباع الأساليب الدخيلة.

التجمل

عمدت الجواري إلى أساليب اصطناعية متعددة في إظهار جمالهن، منها العناية بالحواجب وتدقيقها وترقيقها ومدها وإحداث البلج بالإفراج بين الحاجبين، لأن العرب كانوا يحصون ذلك في شروط الجمال. وأدت الوسائل التجميلية إلى إخفاء العيوب التي تختص بها الحواجب من قرن، أي اتصال الحاجبين، وزيب، أي كثرة الشعر فيهما، ومعط، أي تساقط الشعر عن بعض أجزائهما، واستعاضت بعض النسوة دقيق الكحل عن الشعيرات المتهافتات، مما يدل على المستوى الذي بلغه فن التجميل

آنذاك بعد أن نقلت كل واحدة من هؤلاء الجليات أسرارها عن قومها،
وأضافت ما تعرفه إلى حيل رفيقاتها وأساليهن.

أما العيون التي استرعت أنظار الشعراء، وانتباه الاختصاصيين في
فنون الجمال فهي الدعاء، أي الوسيعة الشديدة السواد، القائمة الأهداب
بدون كحل، الصافية الحدقة التي تبدو وكأنها تغالب النوم في نعاسها
الدائم، أو التي قال عنها أبو نواس:

ضعيفة كر الطرف تحسب أنها قريبة عهد بالإفاقة من سقم

نغالي إذا شئنا تتبع المرأة في كل ما كانت تقوم به لإبراز محاسنها،
ولكننا نظلمها إذا زعمنا أنها أهملت نفسها، ولم تكن بإظهار ما لديها في
أفتن مطلع وأبهى أسلوب. مما عرفته فرشة للأسنان طبيعية تفوق فائدة
ونظافة ما نستعمله في منازلنا، وتنبهت إلى السواك المأخوذ من الأراك،
فاستخدمته في تنظيف أسنانها وإخراج ما علق بينها من بقايا الطعام.
ولعل بعضنا قد ساعدهم الحظ على استعمال هذه الطريقة القديمة
العهد فتبين لهم أن السواك لا يقل نفعا عن فرشاة المصنوعة من العظم
أو النيلون أو وبر الخنزير. وكان من جراء ذلك أن فتن الشعراء بشجر
الأراك الذي تأخذ منه الحبيبة سواكها، فتمنوا أن يكونوا واحدة منها، للثم
ما يتقدم الأسنان. وتناقلوا الأحاديث عنها، منا قول الشاعر:

نقل الأراك بأن ريقة ثغره من قهوة مزجت بماء الكوثر

وقول الآخر:

أقول لمسواك الحبيب لك الهنا بلثم فم ما ناله ثغر عاشق

أما شروط الحسن في هذه الناحية من المرأة فلا تختلف عنها في الوقت الحاضر من رقة الأسنان واستوائها، أو الشنب كما يقولون، وحسن تنضيدها واتساقها. غير أنهم كانوا يستحبون التفليج، وهو الانفراج القليل بينها من غير تباعد مع المحافظة على الحسن والاستواء والبياض وما سلف من الصفات.

ومن الجمال الزائل الذي لا تأبه له اليوم، وكان له طلابه عهد ذلك، الخال الذي ينبت في الخد. فقد أحرق كثيرا من المهج، وأوحى العديد من المقاطع الشعرية. والشعراء سريعو التأثر والالتهاب، يثورون لأتفه الأمور، لبعض شعيرات تظهر في الخد. ومن العدل القول إن بعضهم اهتدى إلى تشبيهات لا بأس بها، وأن كانت بادية التصنع، كقول أحدهم:

كأن خديه ديناران قد وزنا وحرر الصير في الوزن واحتاطا
فخف إحداهما عن وزن صاحبه فحط فوق الذي قد خف قيراطا
ولسنا نعجب لتحول الأذواق، فقد رأى بعضهم آنذاك في الجدرى الذي سطا على وجه الحبيبة أثرا من آثار الجمال كقول شاعرهم:

أيها العائبون وجهها مليحا نثر الحسن فيه نبذ خدوش
أي أفق بها بغير نجوم أي ثوب زها بغير نقوش

الرقيق

مصادرهن

من الثابت أن العرب عرفوا الجواري قبل الإسلام، وأنه كان لأثرياء قريش وزعمائهم بعض منهن ينصرفن إلى الغناء أو إلى الأعمال التي قامت بها الجواري بعد ذلك في قصور المسلمين.

وكان العربي عهدئذ ينظر إلى المرأة كما ينظر إلى أي متاع آخر من ريش أو ماشية أو مال. فإذا غزا جاره، وتغلب عليه ساق أنعامه، وحمل ذرائه ونساءه، وجعل الجميع في خيمته، وتصرف بهم كما يتصرف بالأسلاب الحربية. ونظر بعض الأعراب الجاهليين إلى جميع نسائهم الحرائر والمستعبدات نظرة استصغار واحتقار. فإذا توفي الوالد استولى ابنه الأكبر على نسائه، وأصبح له زوجات. غير أن الأم التي أنجبته كانت تنجو من تنفيذ هذه الشريعة الجائرة. وكان زواج المتعة شائعاً بين رجال القوافل بنوع خاص، فيجمع الرجل في خيامه أو منزله ما شاء من النساء دون عد، ويزور عنهن عندما يريد، أو تصرفه المرأة بتحويل باب خيمتها، فيدرك الزوج أن العهد انبتر بينهما، فيسعى إلى خيمة أخرى.

قامت الفتوح التي رافقت ظهور الإسلام مقام الغزوات في الحصول على السبايا. فإذا تغلب العرب على عدوهم في ساحة القتال، ودخلوا دياره عنوة وقهراً، ولم تعين شروط الفتح يعتبرون البلاد المفتوحة ملكاً لهم، بما فيها من أرض ومحاربين وشيوخ وأولاد ونساء. يتصرفون بهم تصرف

الممالك بملكه. فكل من يقع في أيديهم من بنات المحاربين ونسائهم، وإن كان، من الأسر المالكة، يصبحن إماء لهم، ينقلونهن إلى بلادهم مع الأسلاب ويتوزعونهن بينهم، ويحولونهن إلى منازلهم حيث يصرفونهن إلى ما يشاؤون من الأعمال. وقد أسر بعض الجند العربي الزاحف على بلاد فارس في أيام عمر بنات يزدجرد بن شهريار بن كسرى، وسبوهن وأرسلوهن مع من أرسلن إلى المدينة. فأمر الخليفة ببيعهن. فأعطاهن إلى دلال ينادي عليهن في السوق. وكان من عادة النبيلات الفارسيات أن يحجن وجوههن. فكشف الدلال عن وجه إحداهن فلطمته لطمه شديدة على وجهه، فصاح: واعمره! ورفع أمرها إلى الخليفة، فدعاهن إليه، وأراد أن يضربهن بالدره. فحال على دونهن قائلاً: يا أمير المؤمنين إن الرسول قال: أكرموا عزيز قوم ذل، وغني قوم افتقر. إن بنات الملوك لا يبعن، ولكن قوموهن. فقومهن وأعطاهن أثمانهن، وقسمهن بين الحسين بن علي، ومحمد بن أبي بكر، وعبدالله بن عمر، فولدن ثلاثة من مشاهير العرب هم علي بن الحسين المعروف بزين العابدين، والقاسم بن محمد، وسالم بن عبدالله. منذ ذلك العهد أخذ عدد الجواري يزداد حتى بلغت مئات الألوف. وكان لدى القواد والأمراء والعمال العشرات منهن، ولاسيما بعد أن أخذ العرب بالانسياح غرباً نحو شمالي أفريقيا والأندلس. فقد بلغت غنائم موسى بن نصير فاتح المغرب سنة 91 هـ ثلاثمائة ألف رأس سبي، بعث خمسها إلى الخليفة الوليد بن عبد الملك، أي ستين ألفاً وقليل إن موسى هذا عندما جاء دمشق استقدم معه ثلاثين ألف عذراء من الأسر القوطية النبيلة.

رحلات النخاسين

من الأسباب التي كانت تدعو العرب إلى الفتوح والاندفاع وراء حدودهم أخذ السبايا والرجوع بهن إلى مقرهم، وليس في نيتهم الاستقرار حيث تدافعت جماعاتهم الزاحفة ولعل دخولهم جنوب فرنسة، وكثيرا من المعارك التي دارت بين العباسيين والحمدانيين وبين الروم كانت من هذا النوع. يلاقي الفاتحون سبيا عظيما حتى يضطرب أمرهم، فلا يجدون لديهم من المؤن ما يكفي لإطعام السبي، فينادون عليه، ويبيعونه جماعات وبأثمان زهيدة، ويعود الجندي أحيانا وهو يسحب وراءه عشرات الجواري. ولسنا نغالي إذا قلنا إن هذه المعارك وما شابهها من المواقع التي عنفت في أروبة بين الأقوام المختلفة كانت منابع ذهبية للتجار من النخاسين. فيسيرون وراء الجيوش مرافقين لها، وفي حوزتهم كل ما يحتاجون إليه في تدبير شؤون السبي، حتى إذا أسفر القتال عن وجهه، وتبين الغالب من المغلوب أقبلوا على المنتصر، واشتروا منه الرجال والنساء والأولاد، فوضعوا القيد في الأرجل أو الأعناق، وقادوهم إلى أسواق الرقيق حيث يبيعونهم بأثمان باهظة.

لاقى هؤلاء النخاسون في العربي فاتحا سخيا، ولاسيما في الفتوح الأولى ومواقع الهند والروم. ولكن هذا العربي بعد أن كان مصدرا من مصادر الرقيق أخذ يعتمد على النخاسين الجوايين في أطراف المعمور لشراء الجواري، وبنوع خاص على يهود الأندلس الذين كانوا يتوغلون في أروبة وينتقلون إلى روسية أحيانا، فيحملون من هناك جماعات من الجواري السلافيات والجرمانيات اللاتي عرفن في بلاد العرب باسم الصقلييات.

وقد صادف سوقا رائجة لبياض بشراتهم، وطول أجسامهن، ولما تحلين به من الجمال الماتع، فترفن في معيشتهن، وحفلت حياتهن بالشهي من المطعم، والشفيف من الملبس، والرفيع من المقام، والكثير من الإعزاز والإكرام.

توغل بعض النخاسين في بادية تركستان، واشتروا هناك الفتيات من آبائهن، ونقلوهن إلى سمرقند حيث عني بشؤونهن إلى أن برزت معالم الجمال فيهن وهذبوهن على ما يحب أسياذ بغداد والبصرة ودمشق والفسطاط، فدفعوا بهن الأثمان المرتفعة، وهذا النوع من أشهر الأنواع وأفضلها. وكان بعض العمال يجعلون في خراج الأقطاع الذي يحكمونه جماعات من السبايا، يوجهونهن إلى الخليفة، منهم ابن طاهر الذي أهدى الخليفة المتوكل هدية فيها مائتا وصيفة ووصيف.

إلى جانب هذين المصدرين: الأسر والشراء، مصدر ثالث أقل أثرا منهما، هو الرقيق المسلم الذي كانت تستولي عليه جماعة القرامطة. وهي فرقة هدامة فلسفية دينية ظهرت في أواخر القرن الثالث الهجري، وعمرت طويلا في الطرف الجنوبي من شبه الجزيرة. كانت تعتقد أنها وحدها الفرقة المؤمنة فتستبيح دماء المسلمين، وتأخذ من يقع في يدها من النساء والرجال والأولاد أسرى، وتبيعهم بيع الأرقاء. وقد قطعوا طريق الحاج عام 312 هـ (924 م) فقتلوا كثيرا من الرجال، وأسروا بعضهم، وأخذوا خمسمائة امرأة، وانسحبوا بالجميع إلى مقرهم في هجر. يضاف إلى هذا كله المولدات الشهيرات في مجالس الأدب والغناء اللواتي ولدتهن الجوارى الجليليات في بلاد الإسلام، فنشأن نشأة محلية، وتحلين بالمحبب من الخصال،

والجميل من الفنون، وأصبح لهن مناعة العربيات من حيث دوام جمالهن، ودل الأعجميات من حيث البراعة في أسر قلوب مواليهن. وبهؤلاء استهينت الأموال، فهدرت بدون حساب، ولأجلهن غالي البزازون والعطارون في أسعار سلعهم، وحيكت المؤامرات، وبهن تدله العمال والأمراء والقواد والخلفاء. فإذا وقعت إحداهن في يد نخاس تفنن في تزيينها وتعطيرها والدعوة لها، وحافظ عليها محافظته على مقلتيه، لما يأمل من ورائها من مال وفير، وربح جزيل، يغنيه عن عناء السفر البعيد في السعي والتفتيش.

أخاديع النخاسين

كانت النخاسة من التجارات الرائجة. لا تخلو مدينة من المدن الكبيرة من سوق لها، تبنى فيها البيوت، ويؤتي إليها بأنواع الرقيق المختلف المصادر والألوان والأجناس، في حين أن عرض الجواري في الأسواق يحط من قدرهن، لأن البارعات في الجمال والفنون لا ينزلن هذه المنازل المهينة، وإنما يسعى وراءهن، وترسل الرسل في التفتيش عنهن. لذلك كانت هذه الأسواق تنحصر بالرقيق المعتدل الجمال، ويندر أن يكون في النساء حسناوات أو فنانات.

تقع دار الرقيق في بغداد قرب دجلة في الجانب الغربي، حيث بقيت آثارها بادية إلى القرن الثالث عشر للميلاد. وكان النخاسون يحتالون في إبراز جمال الجواري المعروضات هناك، وفي إخفاء عيوبهن. وقد كتب بعض العلماء رسائل في حيلهم وخدعهم، وفي فن تقليب الجواري لمعرفة الطبيعي

من المصطنع، بعد أن غالوا في تمويه ما يريدون ستره عن عين المشتري. فكم من سمراء كمدة بيعت بصفراء مذهبة، وكم من مرة جعلوا العين الزرقاء كحلاء وحمروا الخدود المصفرة، وسمنوا الوجوه المقعقة، وأعدمو الوجوه شعر اللحا، وأكسبوا الشعور الشقر حالك السواد، وجمدوا الشعور السبطة، وبيضوا الوجوه المسمرة، ودملجوا السيقان المعرقة، ورطلوا الشعور الممرطة، وأذهبوا آثار الوشم والجدرى والنمش والحكة. يقول بعض النخاسين: " ربع درهم حناء يزيد ثمن الجارية مائة درهم فضة ". ومن عادتهم تطويل الشعور بأن يصلوا في طرفها من جنسها. وتنصيع الأسنان بالسواك وبالأشنان والسكر وسحيق الصيني أو الفحم أو الملح المدقوق. ومن وصاياهم للجواري أن يتبرجن للمشتري ويختفين منه أخرى، فإن هذا مالك للقلوب وأن يدارين الشيوخ، والنافري الطباع، ويستملنهن ويتجنبن الشباب، ويمتنعن عليهم ليتمكن من قلوبهم. وكانت الجواري يخضبن حواجبهن بالدامك، وأطرافهن - إن كانت الجارية بيضاء - بالخضاب الأحمر، وإن كانت صفراء بالأسود، ويجرون الصناعة مجرى الطبيعة في كشف الضد بال ضد.

أنواع الجواري

وجعل الكتاب الاختصاصيون منهن أنواعا، وميزوا كل نوع عن الآخر بذكر فضائله ونقائصه. وفرقوا بين الجواري كما يفرق علماء النبات والحيوان المعاصرون موضوع دراستهم في مختبراتهم ومؤلفاتهم، فلاحظوا أن للهنديات حسن القوام، وسمرة الألوان، وحظا وافرا من الجمال مع صفة

وصفاء بشرة، وطيب نكهة، ولين نعمة، ولكن الشيخوخة تسرع إليهن، وهن يصلحن للولد. وأن القندهاريات في معنى الهنديات والسنديات، ينفردن بدقة الخصور وطول الشعور.. والبربريات مطبوعات على الطاعة، نشيطات للخدمة، ويصلحن للتوليد، لأنهن أحذب الإناث على ولد. ويقول أحدهم إذا اجتمع للبربرية مع جودة الجنس أن تجلب وهي بنت تسع حجج، ثم كانت بالمدينة ثلاث حجج، وبمكة ثلاث حجج، ثم جاءت إلى العراق ابنة خمس عشرة، فتأدبت به، جمعت إلى جودة الجنس شكل المدنيات، وخنث المكيات، وآداب العراقيات، واستحقت أن تخبأ في الجفون، وتوضع على العيون. وأن الزنجيات مساوئهن كثيرة، وكلما زاد سوادهن قبحت صورهن، وتحددت أسنانهن، وقل الانتفاع بهن، وخيفت المضرة منهن، والغالب عليهن سوء الأخلاق، وكثرة الهرب. وليس في خلقهن الغم، والرقص والإيقاع فطرة لهن، وطبع فيهن... أما الحبشيات فالغالب عليهن نعومة الأجسام ولينها وضعفها، لا يصلحن للغناء ولا للرقص، دقاق لا يوافقهن غير البلاد التي نشأن فيها... وأن البجاويات مذهبات الألوان، حسناوات الوجوه، ملمس الأجسام، ناعمات البشرة، جوارى متعة... وأن التركيات قد جمعن الحسن والبياض والنعومة، وعيونهن مع صغرها ذات حلاوة، وقدودهن ما بين الربع والقصر، والطول فيهن قليل، وهن كنوز الأولاد، ومعادن النسل... والروميات بيض شقر سباط الشعور، زرق العيون عبيد طاعة وموافقة وخدمة ومناصرة ووفاء وأمانة... وأما الأرمنيات فإن العرب يلصقن بهن أقبح الأوصاف وأشنع الصفات، ونكتفي بالإشارة إليها دون التفصيل.

أسواق الرومان

عرفت المدن القديمة والقرون الوسطى في أروبة أمثال هذه الأسواق التي تعرض فيها سلع الجمال. وأشهرها تلك التي نظمتها الجمهورية الرومانية في العاصمة والمدن الكبرى، وجعلت لها شروطا وقوانين، وأرغمت القيانين على التقيد بها. ليحولوا دون خداعهم الشارين، كما أنها حظرت عليهم أن يشتروا الأحرار أو يبيعوهم، غير أن هذه القوانين كانت تتوارى في الأزمات السياسية والاضطرابات الاجتماعية فيسعى الأحرار إلى هذه الأسواق ويبيعون أنفسهم وأولادهم ونساءهم. ومن الشروط التي وضعها المشرع الروماني للأسواق الرسمية أن تدهن أرجل الرقيق بالأبيض، أي بعلامة الاستعباد، وأما القواد فإنهم يستعملون الطباشير طلبا للإسراع لكثرة عددهم، ويعرضون جماعات جماعات في مكان مرتفع أمام الجمهور، أما إذا كانوا من الشخصيات السياسية المعادية فيجعلون في قفص كبير. ويعلق أحيانا في رقبة كل منهم رق كتبت فيه خصائص حامله المميّزة كالأهل والمولد والصفات والكفاءة وأحيانا النقائص. وبعد أن تتم عملية العرض يبدأ البيع، فيكون بالمزاد العلني. وتقسم جماعات الرقيق إلى عبيد عمل، وجواري منازل، ويضاف إلى الفريقين بعض العجائز.

أما في الأسواق الخاصة فإن القيان الروماني يعرض بضاعته أمام الشارين، ويأمر أرقاءه بالركض والقفز والقيام ببعض الحركات الرياضية، ويذكر صل كل منهم. وكان يغالي في تمويه العيوب وإبراز الحسنات أسوة بجميع القيانين العالميين، فيجعل البشرة الكامدة مشرقة، والجسم الضامر

ممتلئاً. ويتفنن الشارون في اكتشاف المخبوء فيما يعرض أمامهم، ويحذرون الأخاديع، ويرجعون إلى الرسائل المؤلفة في مثل هذا الباب. ولعل بعضها يشبه رسالة ابن بطلان في تقليب الرقيق التي استقينا منها بعض الإشارات في مكان آخر. وكان القانون صريحا في مثل هذه الحالة، فيرى أن الخرس والصمم وقصر النظر والبرداء والنقطة والبخر الدال على مرض متأصل في الرئتين والعقم والإجهاض أو أي نقص في الأعضاء، لا يعلن قبل الشراء، هو سبب من الأسباب التي تقضي برد الجارية إلى القيان واسترجاع ثمنها منه.

أثمانهن

تختلف أثمانهن باختلاف أجناسهن، والفنون التي يحسنها والعصر الذي يعشن فيه. ففي زمن الفتوح وتدفق السبايا على المدن تنخفض الأسعار لكثرة العرض وقلة الطلب. فتتحدد أثمانهن انحدارا عموديا حتى تباع الجارية المليحة الفتية المثقفة بأقل من مائة دينار. أما إذا حل الجفاف، ونضب معين الغزو والفتوح، واعتمد النخاسون على المولدات والجلييات من البلدان القصية في تموين أسواق الرقيق فإن أثمانهن تعود إلى الارتفاع بحيث يصبح معدل ثمن الجارية التي سبق وصفها ألف دينار. وإذا شئنا أن نتبع الأثمان المرتفعة التي كان ينقدها الخلفاء، والأمراء والعمال والقواد وأصحاب الثراء في الجواري اللواتي يرقن لهم فإننا نقفز إلى عشرات الألوف. فسعيد أخو سليمان بن عبد الملك ابتاع مغنية مشهورة بحسن غنائها، وروعة جمالها، بمليون درهم، أو ما يعادل سبعين ألف درهم،

واشترى يزيد ابن عبد الملك الأموي سلامة المغنية بعشرين ألف دينار، وابتاع الرشيد إحدى جواريه بمائة ألف دينار. ورغب محمد الأمين يوما إلى جعفر بن الهادي أن يبيعه جارية له اسمها بذل فأبى، فملاً له قارباً ذهباً، وأرسله إليه. وفي الربع الأول من القرن الرابع الهجري اشترى ابن رائق أمير العراق جارية مولدة سمراء حلوة الغناء بثلاثة عشر ألف دينار، وأعطى من دله عليها ألف دينار. وأشار الجاحظ في رسالة القيان إلى جارية تعرف باسم حبشية بيعت بمائة ألف دينار وعشرين ألف دينار. ولا يغرننا اسم حبشية، فإن كثيرين من الأسياد كانوا يطلقون على المفضلات من جواريههم أقبح الأسماء لحفظهن من العين الشريرة.

تكاثرهن

نخطئ في التقدير إذا قلنا إن عدد الجواري كان قليلاً في المنازل العربية آنذاك. فإنهن يغلبن كثرة على الحرائر، ويحصين بالمئات في منازل العظماء والأثرياء وأحياناً بالألوف. وفي زمن الخصب يزيد عددهن على عشر في منازل العامة. وكن من نفيس المتاع الذي يتهاداه الناس، أو كما يقول الجاحظ بمنزلة المشام والتفاح الذي يتناقله القوم بينهم، وقد أحصى عدد الرقيق الذي كان بحوزة الخليفة الراشدي الثالث فإذا به يزيد على ألف، وكان معاوية يؤتي بالجواري، فيوزعهن على المقربين إليه، ويعهد لبعضهن بالوقوف وراءه ليدفعن عنه الذباب، وليروحنه بالمرأح، أو ليأتيه بها يحتاج إليه من شراب. وعندما زفت بوران إلى المأمون جعل والدها، احتفاء بهذا الزفاف، رقاعاً كتب فيها أسماء ضياع وجوار، فمن وقعت واحدة منها في يده كان له ما فيها. فالجواري من الهدايا المألوفة التي

يهددها الخلفاء إلى الشعراء والمقربين إليهم. من ذلك أن ابن الأنباري كان يتردد على أولاد الراضي، فمر يوما بسوق النخاسين، فأبصر بجارية تامة الأوصاف، فحلت في قلبه محلا وسيعا. وتابع طريقه متحسرا عليها إلى دار أمير المؤمنين. فسأله عما به، فروى له الأمر، فبعث من اشتراها له، وحملها إلى منزله، فلما دخله وجدها هناك. وأنفق بعض الخلفاء في إطعام جواريه كل يوم مائة دينار. وكان للمتوكل اثنا عشر سرية، ويختصر بعضهم هذا العدد فيجعله أربعة آلاف ويختزله ثالث فيحوله إلى أربعمائة، وهو عدد فيه كثير من الاقتصاد والقناعة. ويزول عجبنا بعد هذا عندما نقرأ، في صفحات التاريخ، أن بعض القواد كانوا يرئسون كتيبة من الجند مؤلفة بأجمعها من أبنائهن وذرائعهم. وعندما تغلب صلاح الدين الأيوبي على الفاطميين عثر في قصورهم على اثني عشر ألف نسمة كلهم من النساء، ليس فيهم من الذكور إلا الخليفة وأبناؤه. وقال ابن حزم في نطق العروس: "لم يل الخلافة في الصدر الأول من أمه أمة حاشا يزيد وإبراهيم ابني الوليد، ولا وليها من بني العباس من أمه حرة حاشا السفاح والمهدي والأمين. ولم يلها من بني أمية بالأندلس من أمه حرة أصلا". وليس هذا يعني أن جميع هؤلاء الجواري كن للتسرى، فإن بعضهن كن يصرفن إلى أعمال المنزل، وبعضهن ينفقن أيامهن وجهدهن في وجوه متعددة نشير إليها في مكان آخر.

ومن أغرب ما يمكن أن نسمعه في عصرنا الحاضر أن من مميزات الحرائر الكاملات الصفات إهداءهن أزواجهن الجواري المليحات من مالهن الخاص. فإن هارون الرشيد عندما تدله بحب دنائير جارية جعفر البرمكي،

وألف التردد عليها اشترت زبيدة امرأته عشر جوار مليحات، وأهدتهن إليه
لتحوله عنها، وبينهن مارية أم المعتصم، ومراجل أم المأمون، وفاردة أم
صالح، وكذلك روى الجبرتي المؤرخ المصري المشهور عن إحدى زوجات أبيه
أنها كانت، لصلاحها وبرها بزوجه، تشتري له الجواري من مالها وتحليهن
بالذهب والثياب وتقدمهن لزوجهما طلبا للأجر والثواب.

@booka

جواني الخمارات

الخمارات

تنصرف الجواني إلى العمل في نواح عديدة من مرافق الحياة تكاد لا تحصى، كما أن أحدا من المؤرخين لم يفتن إلى إحصاء تقريبي لهن، رغم غلبتهن على الحرائر، وتصدرهن في المجالس.

هن في كل مكان: في المنازل يقمن بدور الزوجة أو الخادم أو الماشطة أو الممرض أو المربية، أو في القصور يقمن بما أسلفنا من فنون النشاط، وبعث المرح في قلوب أسيادهن بما يتقنه من الرقص والغناء وقرض الشعر أحيانا، أو في معارض القيانين والخمارين فيكسبن لأصحابهن المال والهدايا، مما يعرض عليهم بعض ما أنفقوه لشرائهن والعناية بلباسهن وجمالهن.

وجواني الخمارات حريات بالعناية لكثرتهن وتعدد أجناسهن. بل الأحرى بنا التوقف قليلا أمام هذه الخمارات التي كثرت الإشارات إليها في دواوين الشعراء المتغنين بالخمرة، ولكنها ظلت تبدو لنا نحن المعاصرين شاحبة الوجه، مبهمة الخطوط، فيتخيّلها كل منا كما يشاء هواه، أو كما يتصور الخمارات المعاصرة، في حين أن تبيان هذه الناحية من الحياة قد يؤدي إلى تعديل بعض الآراء، ويجلو أماننا صورة جديدة طريفة عن الحياة آنذاك. فمن الخطأ تخيلها مشابهة لما نشاهده في المدن العامرة من حيث التنسيق والتنظيم والإعلان عن نفسها، وتصدرها في الشوارع وتوثبها أمام الناس، ومن حيث تعبئتها بأنواع المشروبات، وجديد الفرش وشهي

المقבלات، وطرف الزينة. الواقع يسئ إلى خيالنا، ويخالف ما يمكن أن يستقر في ذهننا بعد مطالعة الشعر الخمري، لأن هذه الخمارات كانت جد متواضعة فلا تحوي إلا ما يحتاج إليه الخمار في صنعته والشارب في تعاطيه. وأما الكماليات فنادرة الوجود في حانات ذلك العهد. وإذا شئنا رسم جدول بما يوجد عادة فيها نراه لا يتعدى البسط والنمارق التي يتمدد عليها الشاربون والدنان التي تحبس فيها الخمرة، والأباريق التي تفرغ فيها بعد أن توزن لهم، والقناني والطاسات والدوارق والكؤوس والبزل والأعواد والطنابير.

كانت هذه الأواني متنوعة، مختلفة الأشكال والألوان باختلاف الحانات. فبعضهم يؤثر وضع الخمرة المعلقة في خابية، يختم فوها بالطين، وآخرون يعمدون إلى الزقاق المصنوعة من الجلد كقول الشاعر:

تضمنها زق أزب كأنه صريع من السودان ذو شعر جعد

يربط رأسه بحبل أو خيط، ويحل عندما تسكب منه الخمرة:

ولما حللنا رأسه من رباطه وفاض دما كالمسك أو عنبر الهند

وجدناه في بعض الزوايا كأنه أخو قرة يهتز من شدة البرد

وكذلك كانت الأباريق والكؤوس مختلفة الأصناف والأنواع، تصنع

حينا من الفخار أو الحديد، وأحيانا من الفضة والذهب، وتوشي بالرسوم

والتصاوير، فتبدو فتنة للناظرين. ولعل الخمارات التي تتردد عليها

الارستقراطية كانت زاخرة بأمثال هذه كقول الشاعر:

فدعا بالبزال ثم وجاها فجرت كالعقيق والجلنار

في أباريق من لجين حسان كظباء سكن عرض قفار
أو راك ذعرن من صوت صقر مسرعات شواخص الأبصار
تمثل نفوش الكؤوس مشاهد عديدة من معارك حربية ترمز إلى
العهدين الفارسي والبيزنطي، دققة الصنع، تتقيد بجزئيات المرسوم من
حيث تفاصيل الثياب والأزياء:
فحل بزالتها في قعر كأس محفرة الجوانب والقرار
مصورة بصورة جند كسرى وكسرى في قرار الطهرجار
وحل الجند تحت ركاب كسرى بأعمدة واقبية قصار
أما القناني الزجاجية فتملاً للزبن الذين يتناولون الخمرة خارج
الحانة.

استخفاء الخمارين

كانت الخمارات متوارية، لا تعلن عن نفسها في كثير أو قليل، ولا
تجروء على الظهور أمام الناس خوفاً من أصحاب السلطان ورجال الشرطة
الذين يتعقبون أصحاب الحانات ويتتبعونهم، ويكشفون ما استتر من
أمرهم، لينالوا جزاء مخالفتهم الشرع. لذلك كانت الدعارة تنحصر في
الزبن الذين يترددون على الحانة من عشاق الخمرة والمجان، بعد أن
يتعارفوا أحياناً على رموز خاصة يميز بها الخمار الزبون المسلم من الطارق
الغريب أو الشرطي المدهام. وكثيراً ما تكون الحانة منزلاً لصاحبها، يستر
فيه أمره إذا عنفت المطاردة. فعندما يطرق الرواد بابه ليلاً يتناوم، وقد
دب الرعب في قلبه خوفاً من وشاية، كما قال الشاعر:

تناوم خوفاً أن تكون سعاية، وعأوده بعد الرقاد وجيب
ولما دعونا باسمه طار ذعره وأيقن أن الرحل منه خصيب
وللخمارين بعض العذر في هذا الخوف، لأن وقوعهم في قبضة
الشرطي يؤدي إلى إقفال الخمارة، أي باب رزقهم، وإلى إهراق الخمر
المعتقة بالطرقات، وإلى جلد صاحبها، وسجنه أحياناً، وأخذ ماله من مال
أو متاع. هذا إذا كان ذمياً، أما إذا كان حنيفاً فإن مصيره يكون أسوأ.
لذلك تفنن أصحاب الخمرات أو صاحبات في التستر والتخفي. وكانت
النساء أغلب من الرجال في اصطناع هذه المهنة. فأجهدن أذهانهن في
ابتكار الأساليب التي ترد عنهن كيد الشرطة، وتحجبهن عن عيونهن. من
أساليبهن أنهن جعلن لأبواب منازلهن الوسيعة طاقات صغيرة في مستوى
الوجه، يفتحنها ويوصون منها لمراقبة الزقاق والتعرف إلى الطارق قبل
ولوجه العتبة، حتى إذا اطمأنن إليه فحن الباب على مصراعيه، ورحبن به
كما يليق بالصديق. وإذا خشين سعاية أو أنكرن الزي أوصدن الباب جيداً
بالمزلاج. وتحصن وراءه وأنكرن أن لديهن خمراً ومتعة، إلى أن يخفين كل
ما يدل على أن المنزل خمارة مموهة، أو يقضي الله أمراً كان مفعولاً.

رجال الشرطة

ولعل بعض رجال الشرط عهد ذاك كانوا كبعضهم اليوم. يتشددون
في المطاردة والمراقبة إلى أن تقع الفريسة في أيديهم فينصبون أنفسهم حكماً
للحصول على أتاوة ينعمون بها، دون أن يرفعوا الأمر إلى رؤسائهم،
ويستعينون بوظيفتهم لبلوغ مآربهم في الشراب. ومن الطريف أن نشير إلى

حانة شهلاء اليهودية المشهورة بأناقة ملبسها ونظافة كؤوسها، ورقة حديثها. كان أحد الشعراء متيماً بها، ألف التردد عليها والتودد إليها. يشرب هناك ويقول في كل ذلك شعراً، فيسعد التوفيق حيناً، ويخطئه أحياناً. وقد نزل بشهلاء في أحد الأمسية، وأقفل الباب وراءه، فإذا بدق عليه، فدنا مع صاحبتة من الكوة الصغيرة وفتحها، ونظرا إلى الخارج فأبصرا شرطياً. في وسعنا أن نتمثل ما أصابهما من الجزع، فالحمد أقل ما ينتظر الشاعر المسلم، والخراب أيسر ما يصيب شهلاء الذمية. ولكن الشرطي كان مسالماً. فهو لا يود إزعاجهما، بل يريد أن يسقي خمراً ليأمنّا شره. ويلح في ذلك، والشاعر وصاحبتة يترددان متخوفين من غدره إذا استقر داخل الخمارة، حتى يفتننا إلى الثقب الذي في الباب، فيضعان له فيه أنبوبة قصب ويصبان فيه النبيذ من داخل، والشرطي يشرب من خارج. فأفرخ روع الصديقين وروى الشرطي ظمأه، وكفى الله المؤمنين شر القتال. وقد قال الشاعر في ذلك شعراً، فكان مما قاله:

سأل الشرطي أن نسقيه فسقيناه بأنبوب القصب

إنهما نشرب من أموالنا فاسألوا الشرطي ما هذا الغضب

فالخمارة هي إذن في أغلب الأحيان غرفة أو بعض غرفة، مجهزة بالأنماط، وقد طرحت الزقاق في زاوية منها، أو تخبأ في مكان لا تقع عليه العيون. يقعد الشرب على البسط، ويأخذون بأيديهم الكؤوس، وهكذا لا ترى أثراً للموائد والكراسي، ولا يقدم لهم شئ من المشهيات إلا نادراً. وأشهر النقول التي يتناولونها بعد ارتشاف الكؤوس ما عرف بنقل أبي نواس. فقد سأل أحد الخلفاء بعضهم: ما أخف النقل على النبيذ؟ فقال

له: نقل أبي نواس. فقال: ما هو؟ فأنشده:

ما لي في الناس كلهم مثل مائي خمر ونقلي القبل
يمر الساقى، وهو غالبا جارية بارعة الجمال بالشرب، يحمل بيده
إبريقا معدنيا له عنق دقيقة، فيملأ الكؤوس الفارغة حيناً بعد آخر. ولم
يكن أصحاب الخمارات يتناولون من الزبن ثمن كل قدح على حدة، وإنما
يبيعونهم إبريقا مملوءا يتسلمه النديم، حتى إذا فرغ الأول قبضوا ثمن
الثاني واطرعوه خمرًا، وعهدوا به إلى النديم ليتابع مهمته في سقيهم.

الخمارات الريفية

تقع بعض الخمارات المشهورة خارج المدن، في المواضع النزهة
المحفوفة بالكروم والمعاصر، فيقصدها عشاق الخمرة واللهو ويقىمون
فيها أياما ولعل هذه كانت وسيعة، تتألف أحيانا من غرف عديدة. يعتمد
فيها الشرب إلى الراحة، وإلى النوم غرارا، ليعودوا وقد جددوا نشاطهم إلى
احتساء الخمرة. ومن هذه الخمارات الطلقة النزهة تلك التي نزلها أبو
نواس عندما أزمع على الحج، وهي ما بين الكوفة والقادسية. فلما ذاق
خمرها تشهي متعتها، ونازعتة نفسه إلى الإقامة فيها والتسويق في أمر
دينه في سبيل دنياه، فتحول عن عزمه واستقر فيها يشرب، وقد اطمأن إلى
ملاعب شبابه. وما زال هناك يحتسي الكؤوس حتى وفد أوائل الحاج عائدًا
من المناسك، فكر معهم راجعا إلى بغداد وكأنه كان منهم.

وأكثر القرى شهرة بمثل هذه الحانات عانة وقطربل، وفيها يقول أبو

نواس:

قطربل مربعي ولي بقرب الكوخ مصيف وأمي العنب
وكذلك قنة الفك، وكلواذ والصالحية وطيرناباذا والكرخ التي ورد
ذكرها في البيت السابق. ولعل الشاعر أشار إلى واحدة من هذه الخمارات
الريفية في قوله:

ومل إلى مجلس على شرف بالكرخ بين الحديق معتمد
ممهد صففت نمارقه في ظل كرم معرش خضد
قد لحقتك الغصون أردية فيومك الغض بالنعيم ندى

كانت هذه الحانات على اختلاف أنواعها ومواقعها تدر على أصحابها
المال الوفير، مما يساعدهم على البذل في رشوة أصحاب النفوذ المسؤولين
وكف الأذى عنهم، فيظهر بعضهم أمره عيانا دون وجل، ويجود بناء حانته
ويسيجها ويسقفها بالساج، ويقيمها بجانب بستان نزه يملأ الأنظار بهجة
ومتعة، حتى رأينا خادما المتوكل ينصرف إلى مثل هذه التجارة الربحية، بعد
أن تبين فيها الوسيلة الفضلى لاستدراار الأموال، فاتخذ مثل هذه الحانة
الأنيقة الظاهرة مقرا للاستقراطيين من الشاربين والمجان وأصحاب الكيف
من الأثرياء والقواد وأبناء الأسر المشهورة، فلا يسمح لأحد من العامة
الوضعاء بالدخول إليها. وحسن فيها أدوات الشراب، واتخذ لها خمارا يهوديا
لبقا حاذقا، وحال ينفوذه وماله دون عيون الشرطة خمارتا الواثق.

مما لا شك فيه أن كثيرين من كبار القوم قد أغرموا بمثل هذه
الخمارات، فكانوا يتوافدون عليها، وينعمون بما فيها، حتى تعدهم هذا

الغرام إلى بعض الخلفاء العباسيين الذين حال مقامهم دون تردددهم على الحانات، فأنشأوا مثيلات لها في حدائقهم، وخلقوا الجو المرح الذي يطيف بها. كما حدث للوائق الذي كان يجب الحانات، وما قيل فيها، وما غني به في ذكرها فعقد حانتين: إحداهما في دار الحرم، والأخرى على الشط ببغداد. وأمر أن يختار له خمار نظيف من أهل قطربل. فأقن بنصراني له ابنان نظيفان مليحان، وابنتان على شئ كثير من الجمال. فجعلهم الوائق في الحانتين، وضم إليهم خدما وغلما ورجلا روميات، وأخدم النساء حانة الحرم، والرجال حانة الشط، ونقل إليهما طرائف الشرب، وفرشهما فرش الخلافة، وعلق عليهما الستور، وجعل فيهما الأواني المذهبة والدنان المدهونة فكانتا أحسن منظر وأبهاه. فلما فرغ منهما أمر بإحضار المغنيين، ولم يدع أحدا يصلح من ضراب الطنابير إلا أحضره. وتوافد الشرب، وبرز الخمار مع أولاده وعليهم الأقبية المسهمة، وفي أوساطهم الزنانير المحلاة، ومعهم غلمان يحملون المكاييل والكيزان والمبازل في الأطباق. وأخرجت تلك الدنان المذهبة، وقد طينت رؤوسها تطيينا نظيفا يعبق منه الطيب. فأقيمت بإزاء المجلس الذي كان فيه جالسا، وبزلت كما يفعل في الحانات، وجعل يؤتي بالتماذج فيذوقها، ويعرض ذلك على الجلساء، فيختار كل منهم ما يشتهي، ويحجى إلى الخمار ويكتال منه بمكيال في إنائه، كما يفعل في الحانات، ويعود إلى موضعه فيجلس فيه. وأمر الخليفة أن يجعل على رؤوس الحضور أكاليل الآس، وما أشبهه من الرياحين، وشرب شربا كثيرا، وأمر للخمار بألف دينار، ولزوجته بألف أخرى، ولكل واحد من أولاده بخمسمائة دينار. ولم يبرح المجلس أحد من الشرب إلا بجائزة سنية.

شروط الكمال

لعلنا فطنا إلى أن هذه الأكاليل من الآس والياسمين والغار، وما أشبهها من أنواع الرياحين ما هي إلا بقية من وثنية قديمة العهد، يعتقد أنها تذهب بالخمار، وتساعد حاملها على استساغة الشراب. وقد بدا لنا من المثال الذي عرضناه باقتضاب أن الخمرة لا تكتمل شروطها إلا إذا كان بإشراف ذمي نصراني أو يهودي بنوع خاص، وأن تدور بها القيان على الشاربين. ولعلنا فطنا أيضا إلى ما يرمز إليه الزنار الذي تمنطق به الرجل وزوجته من أنهما حاذقان ماهران بفنون الشراب لأنهما ذميان. فالشاربون لا يستطيعون القهوة التي تسكبها يد مسلمة، وإنما لها كاهنات خبرات يحذقن الطقوس الخمرية ويتوارثنها. أما عن جدة. فالخمار اليهودي أو النصراني من شروط الكمال في الحانات، لأن كلا منهما قد ألف مهنته وأجادها، وعرف أسرار الخمرة وأنواعها وطعومها وشمومها، وأدرك أذواق الشاربين، ففتفنن في إرضائهم وتأمين سبل الراحة لهم. وليس يعني قولنا أن المسلمين لم يحترفوا هذه المهنة بل يعني أن الذميين من يهود ونصارى كانوا أغلب من انصرف إلى هذه التجارة، فأبدعوا فيها، واطمأنت إليهم الزبن. ولم تخل حياة الخمارين من تحاسد طبيعي بين يهود ونصارى، بل لعلمهم أعلنوا الخصومة، وغالوا في التذام والتراشق بالفريات والتهم، وكل منهم ينتقص من فضل عدوه، ويغالي في تقريظ نفسه.

وكان هؤلاء الخمارون يتناسون أسماءهم المركبة أحيانا من أعلام السنة المخارج، ويطلقون على أنفسهم ألقابا خفيفة رشيقة على ثقيلة الشرب دون عناء. ونحن واجدون عند الشعراء الخمريين تجارة من الإشارات إلى

هؤلاء الرجال والنسوة المنصرفين إلى كثيرا الخمرة، فيقول أحدهم:

وفتيان صدق قد صرفت مطيهم إلى بيت خمار نزلنا به ظهرا
فلما حكى الزنار أن ليس مسلما ظننا به خيرا فظن بنا شرا
فقلنا: على دين المسيح ابن مريم؟ فأعرض مزورا وقال لنا هجرا
ولكن يهودي يحبك ظاهرا ويضمّر في المكنون منه لك الغدرا
فقلت له: ما الاسم؟ قال سموال ولكني أكني يعمرّو ولا عمرا
وما شرفنتني كنية عربية ولا أكسبتني لا ثناء ولا فخرا
ولكنها خفت وقلت حروفها وليست كأخرى إنما جعلت وقرا
ولعل خمارنا هذا يعرض بالألقاب التي كانت تطلق على الخمارين
النصارى، كذلك الذي جاء عنه:

فقلت له: ما الاسم حييت؟ قال لي دعاني أبي سابا ولقبني شمرا

زينة الحانات

يختار أصحاب الحانات غالبا قيانا مكتملات الجمال والأدب والذوق،
ناعمات بكثير من الميزات التي تجعلهن مقربات إلى أذواق الأدباء وغير
الأدباء من الشاربين، كتلك الساقية التي يقول فيها الشاعر:

في كف ساقية ناهيك ساقية في حسن قد وفي ظرف وفي أدب
كانت لرب قيان ذي معاينة بالكشح محترف بالكشح مكتسب
حتى إذا ما غلى ماء الشباب بها وأفعمت في تمام الجسم العصب

تمت فلم ير إنسان لها شبهها فيمن برا الله من عجم ومن عرب

وكانت جوارى الحانات متفننات في إظهار ملاحظتهن، يتخذن أحيانا أزياء الغلمان من حيث اللباس وتصفيف الشعر، ويعقربن سوافهن على مستدار الأذن، ويجعلن في أيديهن الدمالج، وفي أرجلهن الخلاخيل ويحجن أجسامهن بالشفيف من النسيج، وينصرفن إلى سكب الخمرة في الأقداح، أو مزجها بالماء، وبالغناء والرقص، ويتقيدن برغبات الشاربين فينشدن ما يخطر لهم من الأبيات على ألحان معدة شائعة. وكثيرا ما كان الشرب يتقارضون الشعر مديحا وغزلا ووصفا، ثم يطرحون على القيان ما انتهوا إليه، فيتغنن به. وهكذا تتعاون قريحة الشعراء، وحناجر القيان، ودبيب الخمرة في خلق جو زاخر بالطرب والأدب. وتتحول تلك المجالس إلى حلقات تختلط فيها ألحان المغنيات المترافقات بدق الطنابير، وعزف المزامير، وصخب السكارى، وكل منهم يلح في طلب صوت معين، والجواري متأنيات حريصات على إرضاء الجميع:

وصهباء من حانوت ريمان قد غدا	علي ولم ينظر بها الشرق صابح
تبصر عنها اليوم كأس روية	وبرد العشايا والقيان الصوادح
وبتنا على الأماط والبيض كالدمى	تضئ لنا لباتهن المصابيح

خداع الجواري

القيان اللواتي عرفهن العرب لا يختلفن عن شبيهاتهن في جميع أصقاع العالم قديمه وحديثه. يتوددن إلى صاحب المال الوفير، ويبدن غوايتهن، ويعمدن إلى جميع الأساليب لمغرية لإيقاع من يردنه في حبالهن. وقد تبين

للجاحظ، وهو المحلل المبدع، أن القينة تكاد لا تخلص في عشقها، لأنها مجبولة على نصب الأشرار للمرابطين عندها، ليقعوا في أنشوطتها. فإذا شاهدها المشاهد رامته باللحظ وداعبته بالتبسم، وغازلته في أشعار الغناء، ونشطت للشرب، وأظهرت الشوق إلى طول مكثه، والصبابة لسرعة عودته، والحزن لفراقه. فإذا أحست أن سحرها بدأ أثره في نفسه تزدت فيما كانت قد شرعت فيه، وأوهمته أن الذي بها أكثر مما به منها. ثم يبدأ عهد ثان بينهما، فتكاتبه وتشكو إليه هواها، وتقسم له أنها مدت الدواة بدمعها، وأنه لا يفارق ضميرها في ليلها ونهارها، وأنها لا تريد سواه، ولا تؤثر أحدا على هواه، ولا تريده لماله، بل لنفسه. فإذا تلطف فأجابها ادعت أنها قد صيرت الجواب سلوتها، وأقامت الكتاب مقام رؤيته. وعندئذ يبدأ عهد ثالث بينهما، تظهر فيه الغيرة عليه، وتنسب إليه النظر إلى صواحبه، وتسقيه أنصاف أقداحها، وتزوده عند انصرافه خصلة من شعرها، وتهدي إليه في الأعياد الهدايا المناسبة، وتنقش على خاتمها اسمه، وترغم أنها لا تنام شوقا إليه، ولا تهنا بالطعام وجدا به، وأنها جمعت قينة من دموعها من البكاء عليه.

وربما عمدت إلى مثل هذه الحيل، وتلبست مثل هذه العواطف، ورددت مثل هذه الأقوال والأعمال، وهي تزعم كل ذلك لثلاثة أو أربعة من المترددين عليها، فتبكي لواحد بعين، وتضحك لرفيقه بالأخرى، وتوهم كلا منهم أنها له دون الآخر، وأن الذي يظهر خلاف ضميرها. وتكتب لهم عند الانصراف كتباً على نسخة واحدة، تذكر لكل واحد منهم تبرمها بالباقيين وحرصها على الخلوة به دونهم. تثابر على هذا النهج من الخداع

إلى أن تنتزع منه ما معه من المال، فتطرحه خارجا، وقد فازت منه بما أرادت، وفاز منها بالهم والنصب. وقد أوجز أحد الشعراء هذه الحالة بأبيات قال فيها:

إذا رأين القيان أحرق ذا	مال يقلبن نحوه الحدقا
وبالتغني وبالتدلل يسلين	فؤادا بحبه علقا
حتى إذا ما سلخن جلده	سلخا رفيقا وبدد الورقا
قلن ادخلوا، ذا الطوير قد طرح	الريش، وشدوا من دونه الغلقا
فبتن يرعين في دراهم	وبات يرعى الهموم والأرقا

لعلنا واجدون لهؤلاء القيان بعض العذر فيما يفعلنه، وما يقلنه، فسادتهن يربونهن على هذه الأخلاق اكتسابا للمال والهدايا، وينشأن في بيئة فاسدة الخلق والعادات، يتدارسن الغواية والخداع وأساليب الدهاء للاستيلاء على القلوب، ويتعلمن الفنون التي تنفعهن في حياتهن المقبلة في بيوت القيانين والحانات ومنازل مواليهن. فمن الصعوبة بمكان أن تسلم القينة من الفتنة، وأن تتخلق بالجميل من الخصال والصدق والصراحة. فهي تنشأ من لدن مولدها إلى أوان وفاتها على لهو الحديث بين الخلعاء والمجان، ومن لا يسمع منه كلمة جد، ولا يرجع منه إلى ثقة ولا دين ولا صيانة مروءة. وتروي الحاذقة منهن أربعة آلاف صوت فصاعدا، ويكون الصوت فيما بين البيتين إلى أربعة، إذا ضرب بعضه ببعض بلغ عشرة آلاف بيت ليس فيها ذكر الله إلا عن غفلة، ولا ترهيب عن عقاب، ولا ترغيب في ثواب، وإنما بنيت كلها على ذكر العشق والصبوة والشوق

والمجون. وهي لا تنفك دراسة لصناعتها، مكبة عليها، تأخذ من المطارحين الذين يغالون في إفسادها، وهي مضطرة إلى ذلك في صناعتها لأنها إن جفتها تفلتت، وإن أهملتها نقصت، وإن لم تستفد منها وقفت.

@booka

الجواري المثقفات

تعليمهن

الجواري اللواتي اضطرب بهن المجتمع الإسلامي على أنواع: منهن التي سبيت من بلاد الأعداء، ونقلت إلى ديار الإسلام وهي على شئ من العمر، فلا سبيل إلى تعليمها العربية، أو تخريجها في الفنون والآداب، أو تهذيبها بأخلاق البلاط والأسر النبيلة فهذه حظها من الرعاية قليل، وشأنها في المنزل الذي تحل فيه هين. ينظر إلى ما في قسّمات وجهها من جمال، ويختلف ثمنها باختلاف ما تبقى في مفاصلها من فتوة، وفي وجهها من حسن. فتحول إلى أعمال المنزل أو تحظى برضا مولاهما. وقد كثر عدد السنديات والهنديات والروميات والأرمنيات والحبشيات اللواتي لا يبن بالعربية، وإذا ابن بما علق بأذهانهن من مفردات وتعابير اعتاصت المخارج عليهن، فأسأن التعبير، كما أسأن اللفظ. وكثيرا ما كانت أصداء اللغات الغربية تتجاوب في قصور بغداد وقرطبة وأشبيلية، وتقوم الجواري العالّما بدور الترجمة.

ومنهن اللواتي نقلن إلى ديار الإسلام وهن صغيرات السن قابلات للتعلم والحفظ. فهؤلاء شأنهن شأن المولّدات اللواتي ينحدرن من الرقيق. ينشأن نشأة عربية خالصة، ويحذقن أساليب التعبير، ويتخلقن بعبادات المكيات والبصريّات والمدنيّات والكوفيّات والقرطبيّات والدمشقيّات، وتلين ألسنتهن في تأدية ما يردنه من المعاني والأغراض، وهذان النوعان هما

أخرى الأنواع بالدراسة لعظم الشأن الذي انتهين إليه، وللمهمة العظيمة التي اضطلعن بها، وللأدب الرفيع الذي أنتجته، وللغناء البديع الذي برعن فيه.

حرص العرب على هؤلاء حرصا شديدا، وفطن أصحابهن من قيانين ورجال سيف وأدب وعمل إلى الكنوز التي في حوزتهم، وإلى أنهم بشئ من العناية يحولونهن إلى ما يشاؤون من فنانات بارعات، وشواعر موفقات. وكثيرا ما كان الراغب في مثلهن يعهد إلى القيانين البارعين في التفتيش في المدن الإسلامية أو سواها على فتيات تتوافر فيهن الحداثة والاستعداد لوعي العلم والجمال الرائع. ومما لا شك فيه أن الملاحظة كانت شرطا أول وميزة فضلى. يحدد الطالب للقيان الميزات التي يريدها، فينصرف هذا إلى مهمته محاولا جهده إرضاء ذوق الزبون. وكثيرا ما يغالي المشتري في شروطه، ويسرف في المغالاة بحيث يستدعي الهزء من صاحبه أو سامعه. من ذلك أن أحدهم قال لدلال: اطلب لي جارية حصانا عند جارها، ماجنة عند زوجها، أدبها الغني، وذلها الفقر، لا ضرة صغيرة ولا عجوزا كبيرة، قد عاشت في نعمة، وأدركتها حاجة، لها عقل وافر، وخلق طاهر، وجمال ظاهر، سوداء المقلتين، كريمة المحتد، رخيمة المنطق، ريحها أرج، ووجهها بهج. ثم مضى في وصف خصرها وطولها وقصرها، وما تبقى من خريطة جسمها، حتى برم به الدلال فقال: استفتح أبواب الجنان فإنك سوف تراها.

الأديبات الشواعر

إذا تم في الجارية الشرط الأول، أي اكتملت محاسنها، فلم يشنها عيب، أو يحط من مقامها نقص يتحول صاحبها الخليفة أو الأمير أو السري إلى صقل ذهنها، وتطويع لسانها، وتلين حركاتها، وإخراج اللآلئ من أصدافها. وكان الخلفاء بنوع خاص يعهدون إلى علماء اللغة، بل إلى أمثمتهم في تثقيف قيانهم، ليأخذن عنهم أسرار اللسان، وما لحق بها من علوم كلامية تنفعهن في حياتهن المقبلة. وينصب الجهد بنوع خاص على الجواري اللواتي يعددن للتردد على المجالس حيث تعقد حلقات المناشدة، فيشاركن فيها عن معرفة وذوق. فلا عجب إذا رأينا الخليفة هارون الرشيد مثلاً يبعث في طلب الأصمعي ليعرض عليه جاريتين أهديتا إليه، فسر علمهما فوجد إحداهما لا تحتاج إلى مزيد علم، كاملة الأدب، فصيحة اللسان، تروي الأشعار والأخبار، وتحفظ القرآن والحديث، وتجيد نظم الشعر.

كان أصحاب هؤلاء الجواري الجميلات المثقفات يفخرون بهن، كما يفخر كل إنسان بما يملك من ثمين المتاع، أو بما يتفرد به من النفائس والطرف. ويأذنون لهن حيناً بالظهور على الأصدقاء، أو يضربون بينهن وبين أصدقائهم حجاباً، فيجلسن وراءها ويغنين، أو يختلطن بهن. ويتجاذبن معهم الحديث، فيتناشدون الشعر، ويتسامرون بالقصص والأخبار. وعديدات هن الجواري اللواتي كن يجارين الشعراء ارتجالاً، ولاسيما في مطارح المجون، يقارعنهم مقارعة الند للند، ويكتب لهن النصر، منهن عنان جارية الناطفي التي عاصرت الشاعر أبا نواس، وكان لها به صلات وثيقة،

يتردد مع رفاقه المجان على منزل صاحبها، فيجلسون إليها ويتناشدون، فتشاركهم في لنظم وتبذهم أحياناً. غير أن هذه المحاورات الشعرية كانت تغلو في المجون والإقذاع لما فيها من الإباحية والإفصاح دون التلميح. وفي كتاب المحاسن والأضداد مجلس من تلك المجالس تجوز قراءته، ولا يحلو نقله. وأغرب ما في أمر عنان تلك المشادة الشعرية التي عنفت بينها وبين شاعرها في حضرة وجوه بغداد، فشاء أن يؤلمها ويخجلها، فردت عليه ردا جارحا تحدث به البغداديون وتناقلوه في مجالسهم حتى بلغ أسماع الخليفة فاستظرفه، فدعا بها وبشاعرها، واستعادهما ما جرى، فأعجب بسرعة بداهتها، وعنّف جوابها، فطلبها من مولاه، فاستام فيها مالا جزيلا فردها.

ولم تكن الجارية التي تسحر اللب بحسنها وعلمها نادرة في ذلك الحين. فكثيرات كن كذلك التي أقبلت على علي بن الجهم في مجلس أحد أصدقائه، فإذا بها كالبدّر ليلة التام، بلون كأنه الدر في البياض، مع إمرار في خدين كشقائق النعمان. فهمس صديقه في أذنه مداعبا عند طلوعها عليهما: "يا أبا الحسن: هذه الجنة التي كنتم توعدون". فإذا بشفتي الجارية الفاتنتين تنفرجان عن نطق ساحر، فترد عليهما شعرا، ويجيبانها على قولها غزلا ومدحا. وتقبل عليهما تحدثهما، فإذا عقل كامل، وجمال فاضل. ثم اندفعت فغنت بنغمة مكية حتى طار عقلاهما.

تخريجهن في الغناء

كان الغناء شرطا أساسيا من شروط الحسن. يشتري المغنون الجوّاري بأثمان زهيدة فيعلمونهن فنهم، ثم يبيعونهن بأفحشها، فيربحون ربعا كثيرا.

وكان القيانون والمسؤولون عنهن يرسلون بهن إلى منازل المغنين ليأخذن عنهم أصول الأصوات. وكثيرات منهن يتجشمن العقبات في الوصول إلى الأستاذ الماهر. وكان الخلفاء وأصحاب الشأن آنذاك إذا استمعوا إلى لحن بأعجبوا به أحبوا إلقاءه على جارية من جوارهم لتردده عليهم عندما يشاؤون.. ولقد غنى إبراهيم بن المهدي الأمين أغنية أعجبتة، فاستحسن اللحن، فأمر بإحضار صبية له. فأخرجت إلى إبراهيم كأنها لؤلؤة، وفي يدها عود. فطلب منه أن يلقي إليها الصوت ففعل. وأعادته مرارا، والأمين يشرب، حتى ظن أنها قد أخذته. فأمرها إبراهيم أن تغنيه، فغنته، فإذا هو قد استوى لها إلا في موضع كان صعبا جدا، فجهد جهده أن تتقنه طلبا لمسرة الخليفة، فلم تتوصل إلى أخذه بته. ورأى الأمين عناءه في أمرها وتعذره عليها، فأقبل وقد سكر وقال: نفيت من الرشيد، وكل أمة لي حرة، وعلى عهد الله لن لم تأخذه في المرة الثالثة لأمرن بالقائك في دجلة. والطبيعة آنذاك في الربيع، ودجلة طافحة، وبينها وبين مجلس الأمين نحو ذراعين. فتأمل إبراهيم القصة. فإذا بالخليفة قد طفح سكرا. والجارية لابد مخطئة في الإخراج. فلم يشأ أن يشترك بدمها، فعدل عما كان يغنيه عليه، وترك ما كان يقوله، وغناه كما كانت هي تخرجه، وجعل يردده حتى انقضت ثلاث مرات، فغنته على ما كان وقع لها، وردده معها، فطابت نفس الأمين وسكن، وأمر له بثلاثين ألف درهم.

أثر الغناء

لشك أن فتيان العرب كانوا يتحسسون الغناء، ويطربون له، حتى تهتز جميع مشاعرهم، والشيخ يماثلونهم في تذوقهم هذا، ويطمئنون إلى

الوجه الصبيح، والصوت الجميل. ويسرفون في الإصغاء إلى غناء جواريههم اللواتي يصطحبنهم في سفنهم النهرية على دجلة والفرات. ينسابون على الماء، والنهر طفاح، والصفتان معشبتان مزهرتان، ويغردن لهم الجديد من الأصوات، والقديم من المعاني، فيطربون ما شاء لهم إحساسهم، ويشقون الجيوب، ويخرج الشيوخ عن وقار السن، وقد دب في أعصابهم أثر النغم ديبب الخمرة، فيأتون بالغريب من الأعمال، فعل الشيخ الذي اصطحب شبانا في سفينة على الفرات، ومعهم مغنية، فلما صاروا في بعض الطريق قالوا للشيخ: معنا جارية لبعضنا، وهي مغنية، فأحببنا أن نسمع غناها، فهبتك توقيرا، فإن أذنت لنا فعلنا. قال: أنا أصعد إلى طلل السفينة - غطاء تغشى به كالسقف للبيت - فاصنعوا أنتم ما شئتم. فصعد، وأخذت الجارية عودها وغنت:

حتى إذا الصبح بدا ضوءه وغابت الجوزاء والمرزم
أقبلت والوطف حفى كما ينساب من مكمنه الأرقم
فطرب الشيخ وصاح. ثم رمى بنفسه بثيابه في النهر، وجعل يغوص فيه، ويطفو ويقول: أنا الأرقم. أنا الأرقم، فألقوا أنفسهم خلفه، فبعد غناء استخرجوه وقالوا له: يا شيخ ما حمل على ما صنعت؟ قال: إليكم عني. فإني والله أعرف من معاني الشعر ما لا تعرفون. فسئل عما أصابه فقال: دب شئ من قدمي إلى رأسي كدبيب النحل، ونزل من رأسي مثله. فلما وردا على قلبي لم أعقل ما عملت. واشترى يزيد بن عبد الملك الجاريتين المشهورتين بحسن غنائهما وجمالهما: حبابة وسلامة، وأدخل الرجال عليهما للسماع. وكان يصغي إليهما، فإذا طرب شق برده، ثم قال: أطير؟ فتقول

حباة أو رفيقتها لا تطر. فإن بنا إليك حاجة. وكان إبراهيم الموصللي يلزم في شبابه قطربل وباري وبني وسواها من متنزهات الفتيان، واتخذ له في إحداها خمارا لطيفا يخصه بالشراب الجيد، ويخبؤه له. فجاءه يوما فلقيه بقوله: يا أبا إسحق: عندي شئ من بابتك. وكان إبراهيم قد عمل لحنه المعروف: اشرب الراح وكن في شربك الراح وقورا

فدخل بيته، وبزل دفه، وجعل يرجع الصوت، فبهت ينظر إليه، والنبيد يجري حتى امتلأ الإناء وفاض على الأرض.

هذا ولم يقتصر أثر الغناء على إثارة النفوس، وتصابي الشيوخ، والمبالغة في الإنفاق لشراء المغنيات الجميلات الصوت، وإنما تعدى كل ذلك إلى التأثير في الحياة الاجتماعية بأكملها، وإلى إيجاد طبقة من الناس مكربة محترمة يصغر عندها الكبير، ويلطف بين يديها العنيف، وحتى استبد الغناء بالأذواق، وأصبح للمغني والمغنية مقام رئيسي في تكييف الأزياء، وطبعها بطابع خاص، وأصبحت الأصوات التي تردد في مجالس الطرب أو في حدائق النزعات، وفي أزقة المدن، تقوم أحيانا مقام الصحيفة السيارة في الدعاوة لأمر من الأمور، أو في نقد نقيصة من النقائص. ومن غرائب المغنين أمر التاجر الكوفي الذي قدم المدينة بخمر تغطي بها النساء رؤوسهن، فباعها كلها وبقيت السود فلم تنفق. وكان صديقا للدرامي الشاعر المغني، فشكا إليه حاله، وكان قد نسك، وترك الغناء، والشعر. فطيب خاطره وقال له: لا تهتم بذلك، سأنفقها لك حتى تبيعها أجمع، ثم قال:

قل للمليحة في الخمار الأسود ماذا صنعت براهب متعبد
قد كان شمر للصلاة ثيابه حتى وقفت له بباب المسجد
وغنى فيه، وتداوله مشاهير المغنين، وشاع على الألسنة في كل مكان،
فقال الناس: قد فتك الدارمي ورجع عن نسكه. فلم تبق في المدينة ظريفة
إلا ابتاعت خماراً أسود، حتى نفذ ما كان مع التاجر منها، فلما علم
الدارمي بذلك، رجع إلى نسكه، ولزم المسجد.

سلامة وعامل المدينة

وما حدث لسلامة القس أبلغ مثال على أثر الغناء في النفوس، وعلى
سلطان المغنيات في قلوب الرجال ولاسيما الرسميين منهم. فقد ولدت
سلامة في المدينة، ونشأت فيها، وأخذت الغناء عن مشاهير هذا الفن،
وعرفت بسلامة القس لأن رجلاً من قراء أهل مكة يلقب بالقس لعبادته
وتقشفه، شغف بها فغلب عليها لقيه. وكان مولاهم يدخل عليها الشعراء،
فينشدونها وتنشدهم وتغني فيهم ما يشاؤون.

كانت الجواري، ومنهن المغنيات، كثيرات العدد في المدينة، وقد
هويهن الناس، بعد أن وجدوا عندهن ما لم يعثروا عليه من الفتنة عند
الحرائر، فأفسدن الأزواج على الزوجات وسلبن القلوب، حتى ضجت
منهن المدنيات وأصحاب الدين، فسعوا في إخراج هؤلاء القيان منها،
ليعيدوا الاطمئنان إلى النفوس، ولكن أصحاب الأمر كانوا يتصامون عن
سماع الشكوى، ويغضون الطرف عما يحدث في عملهم. حتى ولى المدينة
عامل متزمت، يأبى على الناس إلا أن يحيوا كما يريد المحافظون، فوجد

عنده الشاكون أذنا صاغية، فطلبوا منه أن يضع حدا للفساد، وأن يظهر المدينة من الغناء، وما يلحق به من المجون، فسير المنادين - الجريدة الرسمية آنذاك - في الطرق، يأمر المدنيين بإخراج المغنين والمغنيات، وأجل القوم ثلاثة أيام لتنفيذ هذا القرار. وكان ابن أبي عتيق غائبا، وهو من أهل الفضل والعفاف والصلاح. فلما كان آخر ليلة من الأجل المضروب قدم المدينة، فذهب من توه إلى منزل سلامة، فأخبرته الأمر، وبما تخشاه من تهديد العامل الجديد. فانصرف من عندها واستأذن عليه، ودخل فحياه، ومدحه على إخراج أهل الغناء والمجون وقال: ما رأيك، أمتع الله بك، في امرأة كانت هذه صناعتها، وكانت تكره على ذلك، ثم تركته، وأقبلت على الصلاة والصيام والخير، وأبت أن تغادر مثنوى الرسول. قال: أدعها. قال: اسمعها وأصغ إلى دعائها، فإن رأيت أن مثلها ينبغي أن يترك تركتها. فرضى العامل باقتراحه، وجاءه بها وقال لها: اجعلي معك مسبحة وتخشعي، ففعلت. فلما دخلت على العامل حدثته، فإذا هي من أعلم الناس بالناس، فأعجب بها. وحدثته عن آباءه وأمورهم ففكه لذلك. فقال لها ابن أبي عتيق: اقرئي للأمير. فقرأت له. فقال لها: إحدكي له. ففعلت. فكثر تعجبه. فقال: كيف لو سمعتها في صناعتها. فلم يزل ينزله شيئا فشيئا حتى أمرها بالغناء. فقال لها ابن أبي عتيق: غني، فغنت:

سددن خصاص الختم لما دخلنه بكل لبان واضح وجبين

فقام الأمير من مجلسه فقعد بين يديها، ثم قال: لا والله، لا والله! ما مثل هذه تخرج. فقال ابن أبي عتيق: لا يدعك الناس، فهم يقولون: أقر سلامة وأخرج غيرها. فقال: دعوهم جميعا. فتركوا على حالتهم.

وكان يزيد بن عبد الملك معجبا بها، فلما ولي الخلافة اشتراها بعشرين ألف دينار. وعندما خرجت من ملك أهلها شيعها الناس إلى ظاهر المدينة. واجتمعوا حولها عند انفصالها عنهم، فأخذت عودها وودعتهم بغناء طريف، ورددت صوتها إلى أن انصرفت، وانتحب الناس بالبكاء عند ركوبها .

الأخذ عن النوايغ

ترتفع أثمان الجواري إذا أخذن الغناء عن مشاهير الفنانين. لذلك حرص كل الحرص على أن تكون أجازتهن ممن ذاع اسمه، واتفق الناس على تقديمه وتفضيله وترديد أصواته. كان هؤلاء المغنون يؤلفون مدرسة واسعة الانتشار، عظيمة الشأن من حيث عدد المترددين عليها والمستقلين منها، حتى إذا أتقت القيان الفن، ونضج حسنهن، وأقبل سراة القوم على ابتياعهن تفرقن في الخلافة الإسلامية شرقا وغربا وجنوبا وشمالا، وضرب الزمان والمكان بينهما وبين معلمين أكثف الحجب، وانقطعت صلتهم بهم أو كادت، غير أنهم يحاولون حيث ينزلن أن يؤلفن حلقة تقوم بالدعوة لفن المعلم، وتنشر أصواته.

ولقد كانت هؤلاء المغنيات يقمن في الواقع بدور أسطوانات الحاكي المعاصرة. تسجل عليها ألحان المعلم النابغ، وتنشر في جميع الأصقاع. فإذا أغرم أمير من الأمراء، أو عامل من العمال، أو قائد من القواد بمغن مشهور، صعب المنال، أثير في البلاط، لا يقوى على تقريبه، كان يعتمد إلى شراء بعض من تخرجن عليه من الجواري، فينقلن إليه ما يرغب فيه من

أصوات مطربة. غير أننا نسئ المقابلة إذا زعمنا أن الجارية المغنية التي عاشت عهد ذاك لم تكن إلا مجرد أسطوانة من جماد، لا حياة فيها ولا فتنة، تبرى بعد قليل من الدورات، فيهملها صاحبها في زاوية البيت، لأن الأسطوانة القديمة كانت تمتاز عن المعاصرة بارتفاع ثمنها حتى ينقد فيها الشاري آلاف الدنانير، ومتاز بما فيها من حياة نابضة، ودماء فائرة، ونظرات فاتكة، ورقصات بارعة، وبها تشيعه عيناها في ألحانها من فتنة عارمة. وكانت تقوم أحيانا لدى صاحبها مقام المعلم المثقف فيأتي لها بالغريبات الحديثات، فيأخذن عنها أصول فنها، حتى إذا حذقن شيئا من هذه الأصول باع بعضا منهن، فاستعاض بأثمانهن قسما مما دفعه مقابل الأولى.

ومما لا شك فيه أن صاحبها كان يسهر عليها سهرة على أعز ما لديه، فيهيئ لها الجو الملائم من حيث المناخ والطعام واللباس، ويغلو في مرضاتها، والكشف على صحتها، فلا يتأخر في استدعاء أشهر الأطباء مداواتها إذا نزل بها داء، محافظة على كنزه الثمين، لأن خسارة مثل هذه الجواري تعد كارثة قاصمة.

تلميزة معبد

كان معبد قد علم جارية من جواري الحجاز تدعى طيبة، وعني بتخريجها، فاشتراها رجل من أهل العراق، فانصرف بها إلى البصرة، وباعها هناك، فصارت في ملك رجل من أهل الأهواز. وأعجب بها هذا، وذهبت به كل مذهب حتى غلبت عليه. ثم مات بعد أن أقامت عنده برهة من

الزمن، وأخذ جواريه أكثر غنائها عنها. فكان لمحبته إياها وأسفه عليها لا يزال يسأل عن أخبار معبد ومستقره، ويظهر التعصب له والميل إليه، والتقديم لغناؤه على سائر أغاني أهل عصره، إلى أن عرف ذلك منه. وبلغ معبدا خبره، فخرج من مكة حتى أتى البصرة، فلما وردها صادف الرجل قد خرج عنها في ذلك اليوم إلى الأهواز، بعد أن اكرت سفينه له ولجواريه. وجاء معبد يلتمس سفينة ينحدر فيها إلى الأهواز، فلم يجد غير سفينة الرجل، وليس يعرف أحد منهما صاحبه. فأمر الرجل الملاح أن يجلسه معه في مؤخر السفينة، ففعل. فلما صاروا في فم نهر الأبله - بلدة على شاطئ دجلة البصرة، في زاوية الخليج الذي يدخل إلى مدينة البصرة - تغدوا وشربوا، وأمر جواريه فغنين، ومعبد ساكت، وهو في ثياب السفر، وعليه فرو، وخفان غليظان، وزى جاف من زى أهل الحجاز، إلى أن غنت إحدى الجوارى فلم تجد أداء ما غنته، فصاح بها معبد: يا جارية. إن غناءك هذا ليس بمستقيم. فقال له مولاها وقد غضب: وأنت ما يدريك الغناء ما هو؟ لم لا تمسك أو تلزم شأنك؟ فأمسك. ثم غنت أصواتا من غناء غيره، ولكنه لم يصمت، بل أخذ على جميع الجوارى أداءهن الأنغام حتى ضجر منه المولى، وكاد ينزله من السفينة. فأمسك معبد حتى إذا سكنت الجوارى سكته اندفع يغني الصوت الأول حتى فرغ منه. فصاحت الجوارى: أحسنت والله يا رجل أعده، فقال: لا والله، ولا كرامة. ثم غنى الثاني، فقلن لسيدهن: ويحك. هذا والله أحسن الناس غناء، فسله أن يعيده علينا ولو مرة واحدة، لعلنا نأخذه عنه، فإنه إن فاتنا لم نجد مثله أبدا. فقال: قد سمعتن سوء رده عليكن، وقد أسلفنا الإساءة، فاصبرن حتى نداريه. ثم غنى

الثالث، فزلزل عليهم الأرض. فوثب الرجل إليه، وقبل رأسه وقال: يا سيدي أخطأنا عليك، ولم نعرف موضعك. وأنا أعتذر إليك مما جرى، وأسألك أن تنزل إلي وتختلط بي. وعرف كل صاحبه، ووعدته معبد أن لا يقصر في تعليم جواريه، وأن يجعل له في كل واحدة منهم خلفا من الماضية. فأكب الرجل والجواري على يديه ورجليه يقبلونها.

كثيرا ما كان المشاهير من المغنين يصادفون في الرحلات التي يقومون بها جماعات من الجواري اللواتي تخرجن على أيديهم، وقد بسم لهن الزمن، وحظين لدى مواليهن، ونعمن بالعيش الرفيه، فيحسن وفادتهم وتكريمهم، كما حدث لإبراهيم الموصللي عندما دخل الري - مدينة مشهورة بالفواكه والمتنزهات، بينها وبين نيسابور مائة وستون فرسخا، وتزوج إبراهيم منها - فألف فتيانا من أهل النعم بها - وهم لا يعرفون فضله، ولا يفطنون إلى إجادته الغناء. وطال عليه العهد، وهو على تلك الحال إلى أن دعاه أحدهم ليلة إلى منزله، وكان عنده جارية. فمد لها ستارة وغنت خلفها. فرآها صالحة الأداء، كثيرة الرواية، فأظهر ذلك فيه الشوق إلى الغناء، وإلى مراتبه في العراق، فدعا بعود واندفع يغني صوته المعروف: أنا بالري مقيم.....

وكان قد نظم هذا الشعر، وصنع هذا اللحن قديما بالري، فخرجت الجارية من وراء الستارة مبادرة إليه، وأكبت على رأسه وقالت: أستاذي والله. فقال لها مولاها: أي أستاذيك هذا؟ قالت إبراهيم الموصللي. فإذا هي إحدى الجواري اللواتي أخذن عنه، وطال العهد بها. فأكرمه مولاها، وبره. وخلع عليه.

جواري القصور

أبناء الجواري

تسربت الجواري المليحات إلى بلاط الخلفاء، ومنازل الأمراء والقواد، فاستلبن لب مواليهن، حتى أصبح هؤلاء لا يصدرون أمرا إلا عن رغبة لهن. وقد حاول بعض الخلفاء الأمويين، ولاسيما معاوية، إقصاء النساء الدخيلات عن النفوذ، وأن يحصروهن في الخدر، فلا يتناولن إلى السلطة، وذهب التحفظ بالأشياخ المتزمتين إلى الحط من أقدار أبناء الجواري، ونصحوا بالابتعاد عنهن، لأنهن يفسدن العرق العربي، ويضعفن العصبية القديمة. ونظر كثيرون من هؤلاء إلى الهجاء نظرة احتقار وامتهان أول الأمر، إلى أن كثر عددهم، وكان منهم أبناء خلفاء وأشراف. فقد روى رجل من قريش قال: كنت أجالس سعيد بن المسيب، وهو من هؤلاء المحافظين المتشددین في شؤون العرق، فقال لي يوما: من أخوالك؟ فقلت: أمي فتاة. فكأني نقصت في عينه. فأمهلت حتى دخل سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب، فلما خرج من عنده قلت: يا عم، من هذا؟ فقال سبحانه الله. أتجهل مثل هذا من قومك؟ هذا سالم بن عبد الله بن عمر. قلت: فمن أمه؟ فقال: فتاة. ثم أتاه القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق فجلس عنده، ثم نهض. فقلت: يا عم، من هذا؟ فقال: أتجهل من أهلك مثله؟ ما أعجب هذا! هذا القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق. قلت: فمن أمه؟ قال: فتاة. فأمهلت شيئا حتى جاء علي بن الحسين بن علي بن

أبي طالب، فسلم عليه، ثم نهض. فقلت: يا عم. من هذا؟ قال: هذا الذي لا يسع مسلماً أن يجهله، هذا علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب. فقلت: من أمه؟ قال: فتاة. قلت: يا عم. رأيتني نقصت في عينك لما علمت أنني لأم ولد. أفمالي في هؤلاء أسوة قال: فجعلت في عينه جدا. وكانت هذه الكراهية تتعدى الأغراب أحيانا إلى الآباء أنفسهم، فيفضلون أولادهم من الحرائر على الذين أنجبتهن الجواري، كما حدث عندما استبق بنو عبد الملك في حلبة الحيات، فسبقوا مسلمة، وكان ابن أمة، فتمثل عبد الملك بقول عمرو العبدى القائل:

نهيتكموا أن تحملوا فوق خيلكم هجينا لكم يوم الرهان فيدرك
فتعثر كفاه ويسقط سوطه وتخدر ساقاه فما يتحرك
وهل يستوي المرءان: هذا ابن حرة وهذا ابن أخرى ظهرها متشرك
فقال له مسلمة: يغفر الله لك يا أمير المؤمنين. ليس هذا مثلي،
ولكن كما قال ابن المعمر:

فما أنكحونا طائعين بناتهم ولكن خطبناهم بأرماحنا قسرا
فما زاد ما فيها السباء مذلة ولا كلفت خبزا ولا طبخت قدرا
وكم قد ترى فينا من ابن سبية إذا لقي الأبطال يطعنهم شذرا
ويأخذ ريان الطعان بكفه فيوردها بيضا ويصدرها حمرا
فقبل رأسه وعينيه وقال: أحسنت يا بني. ذاك والله أنت. وأمر له
بمائة ألف درهم مثلما أخذ السابق. ولا شك أن هذه الحالة قد تعدلت

فيما بعد، وتحولت إلى نقيض ما كانت عليه، وأصبح العرب يسعون جاهدين في إنجاب الهجناء، لأنهم فطنوا إلى أن الزواج في النزائع - اللواتي يتزوجهن في غير عشيراتهم - يؤدي حتما إلى إنجاب أولاد أشداء أقوياء. فرغب كثيرون منهم في البناء بالأعجميات، وقد قال أحدهم: بنات العم أصبر، والغرائب أنجب، وما ضرب رؤوس الأبطال كأبن الأعجمية.

ومن الثابت أن التدله بالأعجميات لم ينتج معظمه عن الرغبة في النسل القوي النشيط، وفي الإتيان بجيل تمتزج في عروقه الدماء العربية والأعجمية، وإنما هذا التدله ناشئ عن ميل جنسي عنيف، وغن انتقال فرسان العرب من بلد إلى آخر، وابتعادهم عن العربيات الخاصات، وكان لابد لهذا الاتصال من أن يؤدي إلى إنجاب الأولاد. وقد فتن كثير من العرب في أول عهدهم بلون الأعاجم المشرق، وسرهم أن يكون أبناؤهم على شئ من البياض، وبلغ إعجابهم بأبناء الأعاجم أنهم كانوا يفضلونهم علنا على أبنائهم السمر الوجوه أو المائلين إلى السواد. فقد قال رجل من أبناء المهاجرين: أبناء هذه الأعاجم كأنهم نقبوا الجنة، وخرجوا منها، وأولادنا كأنهم مساجر التنانير " وقال آخر: من أراد قلة المؤونة، وخفة النفقة، وحسن الخدمة، وارتفاع الحشمة، فعليه بالإماء دون الحرائر. وقال ثالث: عجبت لمن استمتع بالسراي كيف يتزوج المهائر.

نفوذهن

أخذ نفوذ الجواري يقوى شيئا فشيئا حتى أصبح المرجع الرئيسي في كثير من القضايا. وسعى مؤسسو الدولة العباسية للحد من سلطانهن

وإضعاف شأنهن، فكانوا يتفحصون أمر اللواقي يدخلن قصورهم، فإذا وجدوهن ذوات أسر، لهن أهل، امتنعوا عن شرائهن، والبناء بهن. وكان الخليفة المنصور أكثر العباسيين تشددا في هذا الباب. لذلك كانت الجواري يعمدن أحيانا إلى الحيلة، حتى إذا ولدن للخلفاء أسفرن عن حقيقتهن، وأبن نسبهن، كما فعلت الجارية الخيزران التي كانت لرجل من ثقيف، فقدم بها مكة فباعها في الرقيق. فاشتريت وعرضت على المنصور فقال لها: من أين أنت؟ فقالت: المولد مكة، والمنشأ جرش. قال: ألك أحد؟ قالت: ما لي أحد إلا الله، ما ولدت أُمي غيري. قال: يا غلام. اذهب بها إلى المهدي، وقل له: تصلح للولد. فأتي بها المهدي فوقعته منه كل موقع. فلما ولدت موسى وهرون قالت: إن لي أهلا بجرش قال: ومن لك؟ قالت: لي أختاه اسماهما أسماء وسلسبيل، ولي أم وأخوان. فكتب فأتي بهم، فتزوج جعفر بن المنصور سلسبيل، فولدت منه زبيدة، واسمها سكيئة، وهي التي تزوجها الرشيد. وقال المهدي للخيزران: قد ولدت رجلين بايعت لهما، وما أحب أن تبقى أمة، بل أود عتقك، فخرجت إلى مكة، وعادت منها فتزوجها.

ومنذ ذلك العهد غدت الجواري أقرب النساء إلى قلوب الخلفاء، وأكثرهن نفوذا عندهم. فملك ذات الخال زمام هرون الرشيد حتى أنه أقسم يوما أنها لا تسأل شيئا إلا قضاها لها. فطلبت منه أن يولي أحد المقربين إليها الحرب والخراج بفارس سبع سنين. فامتثل لها، وكتب له عهدا به، وشرط على ولي عهده بعده أن يتمها له، إن لم تتم في حياته.

وهارون الرشيد هو أول من غالى من العباسيين في تفضيل الجواري وتقريبهن. فإن معظم أولاده كانوا أبناء إماء: منهم عبدالله المأمون وأمه أم

ولد فارسية يقال لها مراحل، والقاسم المؤمن وأمّه أم ولد يقال لها قصف،
ومحمد أبو إسحق المعتصم وأمّه أم ولد يقال لها ماردة، وهي تركية
الأصل، وكان لها أثر كبير في أخلاق ابنها، فدعاه ميله إلى أمه إلى استدعاء
الأتراك الذين أضعفوا النفوذيين الفارسي والعربي، وانتزعوا من الخلفاء
العباسيين كل سلطان. ومن أولاد هارون الرشيد صالح وأمّه أم ولد يقال
لها رثم، ومحمد أبو عيسى وأمّه أم ولد يقال لها عرابة، ومحمد أبو
يعقوب وأمّه أم ولد لها شذرة، ومحمد أبو العباس وأمّه أم ولد يقال لها
خبث، ومحمد أبو سليمان وأمّه أم ولد يقال لها رداح، ومحمد أبو علي
وأمه أم ولد يقال لها دواج، ومحمد أبو أحمد وأمّه أم ولد يقال لها كتمان.
فإن تعلق العربي بانتسابه إل آبائه وجدوده وقبيلته قابله بعد
الفتوح تهاون في نسب الأم، حتى ندر من الخلفاء من أمه حرة، وكاد يلي
الخلافة في مستهل القرن الثالث الهجري إبراهيم ابن المهدي، وهو شديد
السواد، براق اللون، وأمّه أم ولد سوداء حالكة اللون.

كثيرا ما كانت الجواري يشتركن في المؤامرات التي تحاك في البلاط
عند خلع خليفة ومبايعة آخر. بعضهن قمن بأدوار حاسمة في تاريخ
العباسيين: منهن الجارية أم المقتدر الذي ولاه الأتراك الخلافة وهو صبي
في الثالثة عشرة من عمره ظنا منهم أن بوسعهم التصرف باسمه بشؤون
الخلافة كما يشاؤون لضعفه وصغر سنه. فإذا بهم يلاقون عنتا شديدا من
أمه، وهي أم ولد رومية. فقبضت على أزمة الأمور، وقادت شؤون الدولة
بحزم وحنكة مدة ربع قرن، وهي أطول مدة تولي فيها عباسي الحكم آنذاك.
وخلع الخليفة أثناء حكمه مرتين كانت أمه تسعى إلى إعادته إلى كرسي

الخلافة إلى أن تألب عليه الخصوم، فخرج لقتالهم فصرعوه. والجارية الشيرازية حسن التي عاشت في البلاط أيام الخليفتين المتقي والمستكفي هي التي سعت في إقصاء الأول عن الخلافة، وأوعزت إلى غلامها السندي بسمل عينيه عندما أحجم القواد عن فعل ذلك، وتسلمت على الثاني حتى أقضت مضجعه، وقضت عليه فيما بعد. وقد اندثرت في الخليفة الطائع جميع ملامح الجنس العربي، فكان شبيها بسكان المناطق الشمالية الباردة، أبيض أشقر البشرة والشعر، أزرق العينين، طويل القامة حسن الجسم، شديد القوة.

أديانهم

وكما أن الجواري متعددات المصادر والأجناس والألوان فهن مختلفات أيضا في الدين. ينتمين عادة إلى الإسلام أو النصرانية أو اليهودية أو المجوسية. وأما الوثنيات الأصل فيسارعن إلى اعتناق الإسلام دينا. وكثيرا ما تتحول الكتابيات أنفسهن إلى الدين الحنيفي، ويقمن بالشعائر اللازمة في مثل هذه الأحوال تقربا من أسيادهن الذين كانوا يحررون بعضهن للتزوج منهن زواجا شرعيا. ينتقلن إلى الإسلام، لأن الاختلاف في الدين يؤدي حتما إلى أن لا يرث أحدهما الآخر. لذلك كانت الجواري الكتابيات يسلمن أو يتظاهرن بالإسلام ليرثن أزواجهن الأغنياء بعد موتهم. ولم يكن اعتناقهن الدين الجديد بالأمر الصعب المنال، بل ينحصر ذلك بأن تشهد الجارية على نفسها أمام أحد الشيوخ، وأن يكتب النص الآتي: "حضر إلى شهوده في يوم تاريخه من ذكر أنه حضر إلى مجلس فلان - أدام الله أيامه - فلان بن فلان الفلاني (أو فلانة)، وأشهدهم على

نفسه أنه تلفظ بالشهادتين المعظمتين، وهما شهادة أن لا إله إلا الله وحده، لا شريك له، وأن محمد عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم، أرسله بالهدى ودين الحق، ليظهره على الدين كله، ولو كره المشركون، وأن عيسى بن مريم عبد الله ونبيه، ومريم أمة الله، وأن محمدا صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين وأفضل المرسلين، وأن شريعته أفضل الشرائع، وملته أفضل الملل، وأن ما جاء به عن الله حق. وقال: أنا برئت من كل دين يخالف دين الإسلام. ودخل في ذلك طائعا مختارا، وأشهد عليه بذلك، وتلفظ به بتاريخ كذا وكذا". فإن أسلم يهودي (أو يهودية) كتب موضع عيسى: وأن موسى عبد الله ونبيه، وأن محمدا صلى الله عليه وسلم أفضل الأنبياء وشريعته أفضل الشرائع. وأن شريعة محمد (ص) نسخت شريعة موسى وجميع الشرائع إلخ...

أما الجواري اللواتي يبقين في الرق فيحافظن في أغلب الأحيان على دينهن القديم، ويقمن بشعائره، ويتقيدن بنواحيه، ويتساهل أسيادهن معهن في ذلك، فلا يكرهونهن على تغيير عقيدتهن، وإنما يحترمون دينهن، ويسهلون لهن القيام بالطقوس والفروض الخاصة في المواسم والأعياد. وليس من الغريب في شئ أن يدخل المقربون من المأمون مجلسه فيجدون جماعة من الجواري الروميات وقد تمنطقن بالزنار، وتزين بالديباج الرومي، وعلقن على أعناقهن صلبان الذهب، وأخذن في أيديهن الخوص والزيتون بمناسبة عيد الشعانين، وهن في مرح وبهجة، والمأمون ينظر إلى ذلك، ولا يستغرب ما يجري حوله. فمن المغالاة، بل من الإسراف في المغالاة، القول إن المسلمين أكرهوا جواريهم على تبديل دينهن. ولعل كثيرا من الشعائر النصرانية واليهودية والمجوسية كانت تقام في قصور الخلفاء، أمراء المؤمنين،

الذين يؤمزون إلى أرفع سلطة زمنية وروحية في الإسلام.
أدى تدين الجواري بغير دين السادة، وتسربهن إلى جميع القصور،
والحظوة التي كانت لهن في القلوب إلى ظهور نفوذ الأخوال الأعاجم من
فرس وترك وروم، وإلى تنفذ طوائف من رجال الأديان التي تدين بها
الجواري المحظوظات الرفيعات المقام. ولسنا نعجب بعد هذا إذا طالعنا
في كتب التاريخ أن كثيرين من الخلفاء والوزراء والأمراء والعمال قربوا
إليهم غير المسلمين وأنعموا عليهم بالخيرات، ووسعوا عليهم، وحكموهم
بسواهم وبالمسلمين أحياناً، لأن أمهات هؤلاء المتنفذين على دين النصارى
أو اليهودي أو المجوس. فكان للمقتدر خال رومي يعرف باسم غريب،
يخاطبه الناس بالإمرة، وهو ذو سلطان، يرهبه الناس، ويتقربون إليه في
سبيل الوصول إلى ما يريدون من نعم الخلافة.

والدة الأمير القسري

من أوضح الأمثلة على هذا النفوذ ما جرى للأمير خالد بن
عبدالله القسري عامل العراق للأمويين مع أمه النصرانية، وهي رومية
الجنس، تغزل بها أحد الشعراء فقال مدافعا عن نصرانيتها وزرقة عينيها:
يقولون نصرانية أم خالد فقلت دعوها كل نفس ودينها
فإن تك نصرانية أم خالد فقد صورت صورة لا تشينها
أحبك إن قالوا بعينك زرقة كذاك عتاق الطير زرق عيونها
وقد تأدبت بآداب العرب، ولقنت لغتهم وفصاحتهم حتى طاع
لها نظم الشعر أيضا. وكان ابنها خالد محسنا إلى أهل الذمة يعرف لهم

أقدارهم، ويقلد من يصلح منهم الأعمال الديوانية. وهو أمر أنكره عليه هشام بن عبد الملك، ويظهر أنه لم يكن في زمانها كنيسة للروم الملكيين في الكوفة، ويشق عليها أن تشهد صلوات النساطرة واليعاقبة، فسألت ابنها أن يبني لها بيعة خاصة بمذهبها البيزنطي. فلبى دعوتها، وأقام لها البيعة المنسوبة إليه، وبنى حولها حوانيت بالآجر والجص، وهدمت بعد قتله، وصار في مكانها سكة البريد.

إخلاصهن

مما لا شك فيه أن الخداع كان أسرع إلى قلوب قيان الحانات وبيوت القيانين مما هو إلى قلوب الجواري اللواتي يلقين مراسيهن في منازل أصحابهن فيأمن فيها تقلب الأيام، وسوء المصير. ومما لا شك فيه أيضا أن بعض الجواري كن يخلصن لأصحابهن إخلاصا عميقا عنيفا لا يزعهه الحدثان، ولا يضعفه ترهيب أو ترغيب، كتلك الجارية الحسنة التي كانت للوائق، فلما أخذها المتوكل أرادها على الغناء، فأبت أن تغني وفاء لصاحبها، فأقام على رأسها خادما، وأمره أن يضرب رأسها أبدا أو تغني، فغنت مكرهة مستعبرة. وكثيرات من الجواري ذهبن في إخلاصهن لأسيادهن مذهباً لم تدانه الحرائر الأصيلات، والأمثلة على ذلك عديدة. فإن دنانير كانت جارية مولدة من أحسن الناس وجها وأظرفهن وأكملهن أدبا، وأكثرهن رواية للغناء والشعر. فلما رآها يحيى بن خالد البرمكي، أعجب بها فاشتراها، وأتم تثقيفها على إبراهيم الموصلي حتى كانت تغني غناءه فتحكيه، فلا يكون بينهما فرق. وأغرم هرون الرشيد بفنها. فكان يتردد على صاحبها، ووهب لها يوما عقدا قيمته ثلاثون ألف دينار، حتى

عابه أهله على ذلك. وشغف بها صاحبها حتى كان يتصدق عنها في كل يوم من شهر رمضان بألف دينار، لأنها كانت لا تصومه. وعندما نكب البرامكة، وحل الوبال بصاحبها، دعاها الرشيد إلى قصره، وأمرها أن تغني فقالت: يا أمير المؤمنين إني آليت ألا أغني بعد سيدي أبدا. فغضب وأمر بصفعها، فصفعت، وأقيمت على رجليها، وأعطيت العود فأخذته وهي تبكي أحر بكاء، واندفعت فغنت:

يا دار سلمى بنازح السند بين الثنايا ومسقط اللبد
لما رأيت الديار قد درست أيقنت أن النعيم لم يعد

متيم

وكذلك أمر الجارية متيم، وهي صغاء من مولدات البصرة. فيها نشأت وتأدبت وبدأت بالغناء، بعد أن أخذت عن مشاهير المغنين الذين عاصروها، كإسحق الموصلي. فاشتراها علي بن هشام، وهو من أمراء المأمون وقواده، وتولى له حرب بابك الخرمي، ثم غضب عليه، لأنه استعمله على أذربيجان وغيرها، فبلغه ظلمه وأخذته الأموال، فقتله. عندما اشتراها علي بن هشام كانت لا تزال جويرية، فدفع فيها عشرين ألف درهم، فازدادت في مجلسه جمالا وتفننا بالغناء لكثرة من كان يغشاه من مشاهير المغنين، واستفادت أدبا وعلمًا. ونظمت الشعر ارتجالا وعن روية، وتقدمت على جواريه معرفة وحظا. وقد سأل المأمون علي بن هشام أن يهبها له لإعجابه بجمالها وغنائها، فأبأها عليه، وحرص على أن تصبح أم ولد فيأمن عليها من طمع المأمون. ويقال إن امتناع علي من النزول عنها

كان من الأسباب التي دعت إلى النعمة عليه وقتله. وعندما فتك المأمون بصاحبها عتقت، وكانت قد ولدت له أكثر أولاده، فلم يتوصل إليها الخليفة، وإن استصفى مال علي بن هشام، وأخذ جواريه غير أمهات الأولاد. وقد حزن متيم على مولاه حزنًا شديدًا، وأخلصت له طول عهد المأمون، ولم يذكر المترجمون لها أنها غنت للخليفة بعد أن أوقع بعلي، وإنما يذكرون أنها مرت مع نسوة وهي متخفية بقصر علي بن هشام بعد أن قتل، فلما رأت بابه مغلقًا لا أنيس عليه، وقد علاه التراب والغبرة، وطرحت في أفنيته المزابل، وقفت وناحت عليه، ثم بكّت حتى سقطت من قامتها. وجعل النسوة يناشدنها الله في أن تكف وتسير، لئلا تؤخذ. وبعد لأي، حملنها تنهادر بينهن، حتى تجاوزت الموضع. ويذكر أيضًا أنها عادت إلى الغناء أيام المعتصم، بعد قدومه بغداد. فقد دعا بها، فذهبت إليه فأمرها بالغناء، فغنت: هل مسعد لبكاء بعبرة أو دماء.

فطلب منها العدول عنه إلى غيره، فغنته بمعناه، فدمعت عيناه وأشار بالانتقال إلى معنى آخر فغنته: لا تأمن الموت في حل وفي حرم إن المنيا تغشى كل إنسان.

فقال: والله لولا إني أعلم أنك إنما غنيت بما في قلبك لصاحبك وأنت لم تريدينني لمثلت بك. وأمر من كان بين يديه، فأخذوا بها وأخرجوها من مجلسه ولعلها عادت فيما بعد إلى المعتصم واستأنفت الغناء في حضرته، إلى أن توفيت.

الجواري السميرات

طبقة خاصة

من الجواري صنف آخر قد لا نفطن إلى وجوده في عصرنا الحاضر، وهو مزيج من ذلك النوع الذي رأيناه في الحانات المغالي في الفتنة وفي خدمة الزبن، ومن النوع الآخر الذي يعيش في منازل الأسياد حياة الحرائر أو ما يشبه حياتهن، ومن النوع الثالث الشائع الذي يعرض في أسواق النخاسين. النوع الآخر الخليط من هذه الأنواع كلها، والذي يطلق عليه اسم الجواري السميرات يتألف عامة من القيان البارعات في الغناء والرقص وفنون الغواية. يعشن في كنف أسيادهن عيشة تتراوح بين عيشة أمثالهن في عهدة النخاسين والمتسرين. ليس لأصحابهن عليهن غيرة السيد الأنوف، وليس في صدورهم حمية المولى المتفرد بسراريه، فهم يسمحون لهن بالخروج إلى الناس والزائرين أو المرابطين - كما كانوا يقولون بلغة ذلك العصر - وهؤلاء يفدون في ساعة معينة من النهار أو الليل فيجلسون إليهن ويصغون إلى غنائهن، ويمتعون أبصارهم برقصهن البارع، وجمالهن الممتع، والسيد يتلطف في فرش المنزل بالبسط الغالية، والتمارق المزركشة، ويوزع الطنافس في الزوايا، ليستريح عليها هؤلاء المرابطون. وهو يتكلف لهم هذا العناء، ويبش في وجوههم لأنهم يحملون إليه الطرف والهدايا من أفخر الخمور، وأطيب النقل، وأندر العطور، وشفيف النسج. وهم إلى جانب ذلك يبرون السيد أحيانا بالمال، ويرفهون عنه بعض مشقة الحياة. ينتمون

إلى جميع الطبقات الاجتماعية، من قضاة وحكام وقواد وشعراء وتجار. وكل منهم يعطف على السيد صاحب الجارية أو الجواري، ويسهل له أموره، ويحل له ما تعقد منها، ويساعده في قضاء حاجاته. يقصدون إليه من مكان قصي، كما يقصدون الخلفاء والأمراء وعظماء الرجال. فيزار ولا يكلف الزيارة، ويوصل ولا يحمل على الصلة، ويهدي له، ولا تقتضي منه الهدية. لا يهتم هذا القيان بغلاء الدقيق، ولا عوز السويق، ولا عزة الزيت، ولا فساد النبيذ. وهو يستقرض ولا يرد، ويسأل الحوائج فلا يمنع. يكتفي إذا نودي، ويفدي إذا دعي، ويحبي بطريف الأخبار، ويطلع على مكنون الأسرار. ويكفيه أصحاب النفوذ من المترددين عليه عادية الشرط والأعوان، فيعيش مطمئناً.

المرابطون

يكتفي كثيرون من هؤلاء الذين يفدون على منازل القيانين في زياراتهم على السماع والنظر، وتناقل الأخبار، وتطارح الشعر. ولعلهم كانوا أيضاً يجدون فيها ما يجده المعاصرون في صالات الأدب من متعة، غير أن القدماء يضيفون إلى وقار العلم والبحث الجدي بعض توابل الاجتماع من رقص وغناء. وكان بعضهم يفرج في هذه الحلقات الأدبية الفنية عن نفسه، بعد أن حجزها طول نهاره في وقار عمله الرسمي، فليس من الغرابة في شئ إذا رأينا ابن فهم الصوفي عند سماعه غناء " نهاية " جارية ابن المغني يضرب بنفسه الأرض، ويتمرغ في التراب، ويهيج ويزيد، فإذا دنا منه أحد عض بنابه، وخمش بظفره، وركل برجله. أو إذا رأينا ابن غيلان البزاز عندما يسمع ترجيعات " بلور " جارية ابن اليزيدي تنقلب حماليق عينيه، ويسقط

مغشياً عليه، فلا يستفيق إلا بعد أن ينضح بالكافور وماء الورد، ويقرأ في أذنه آية الكرسي والمعوذتين أو إذا رأينا أبا الحسن الجراحي قاضي الكرخ الوقور عندما يسمع غناء شعلة تبتل شيبته بالدموع حتى يرق له الحاضرون فتتحد دموعهم رحمة له، ورقة عليه. فقد كانت هذه المجالس تضم جماعات شتى، متنوعة الأذواق، متعددة المراتب والمقامات الاجتماعية. يوحد بينهم حبهم للغناء، ورغبتهم في التمثلي في الملاحظة الدافقة في وجوه القيان. وقد أحصى أبو حيان التوحيدي حوالي سنة 360 للهجرة السميريات على ضفتي دجلة، فإذا بهن يبلغن أربعمائة وستين جارية، يجمعن بين الحذق والحسن والظرف والعشرة، سوى من كان لا يظفر به، ولا يوصل إليه لعزته وحرسه ورقبائه، وسوى ما كان يسمعه ممن لا يتظاهر بالغناء وبالضرب إلا إذا نشط في وقت أو ثمل في حال.

ولقد وضع الجاحظ رسالة في القيان، كتبها على لسان القيانين، ووجهها إلى أهل الجهالة والجفاء وغلظ الطبع، وفساد الحس، وأورد في مطلعها جدولاً بأسماء مشاهيرهم في عصره، وذكر فضائلهم ومقامهم الرفيع في المجتمع، وسعى الناس في خطب ودهم، كعادته إذا أراد أن يهزل في أمر، أو أن يسخر من جماعة. وبوسعنا أن نتمثل بعض ما كان يدور في مجالس السميريات من محاورات ومساجلات، ومن تحايل في إدخال السرور إلى قلوب المرابطين، ومن إسراف في الشراب والتندر، بأن نقف على ما حدث يوماً في مجلس منها، اشتهر في المدينة، وعرف بمجلس ابن نفيس.

مجلس ابن نفيس

كانت بصبص جارية ابن نفيس حلوة الوجه، حسنة الغناء، أخذت أسرارها عن الطبقة الأولى. وكان مولاها صاحب قيان، يزوره الأشراف، ويستمعون إلى فتياته، ويفد إليه فتيان قريش في عهد الخليفة العباسي المهدي، فينعمون بمجلس جاريته. وقد اجتمع أشراف المدينة عندها يوما، وتذاكروا أمر رجل يدعى مزيد، وهو صاحب نوادر في البخل، حرى أن يتحدث عنه الجاحظ، فزعمت بصبص أن بوسعها أن تأخذ منه درهما. فوعدها صاحبها بأن يحررها إن لم يشتري لها مخنقة بمائة ألف دينار، وثوب وشي، وأن يجعل لها مجلسا بالعقيق، وينحر فيه بدنة لم تقتب ولم تتركب، فيما إذا توصلت إلى الحصول على درهم مزيد. فطلبت إحضاره، وأن يكف عنها الغيرة مهما بدا منها ومنه. وجئ به عند العصر، وكان المجلس عامرا بالأشراف، فأكلوا وشربوا، وتسأكروا وتنادموا. فأقبلت الجارية بصبص على مزيد فقالت: أبا إسحق. كأنك تشتهي أن أغنيك. فقال: زوجته طالق إن لم تكوني تعلمين ما في اللوح المحفوظ. فغنته. ثم مكثت قليلا وقالت: أبا إسحق! كأن نفسك تشتهي أن تقوم من مجلسك فتجلس إلى جانبي وتداعيني وأغنيك. فقال: امرأته طالق إن لم تكوني تعلمين ما في الأرحام، وما تكسب الأنفس غدا، وبأي أرض تموت. فانتقل إلى قربها فغنته. ثم قالت: برح الخفاء! أنا أعلم أنك تشتهي أن تقبلني شق التين، وأغنيك هزجا. فقبلها وغنته. ثم قالت: أبا إسحق! أرايت أسقط من هؤلاء. يدعونك ويخرجونني إليك، ولا يشترون ريحانا بدرهم. أي أبا إسحق، هلم درهما نشري به ريحانا. فوثب وصاح: واحرباه. أي... انقطع

والله عنك الوحي الذي كان يوحى إليك. وعطعت القوم بها، وعلموا أن حيلتها لم تنفذ عليه. ثم خرج، فلم يعد إليها، ورجع القوم إلى مجلسهم، فكان أكثر شغلهم فيه حديث مزيد معها والضحك منه.

السميرات اليونانيات

كان في بلاد اليونان فئة من الجوّاري شبيهة بهؤلاء تتألف من مجموعة كثيرة العدد من الفتيات البارعات في جمالهن وأدبهن وظرفهن، يشاركن في كل علم، ويأخذن من كل فن بطرف. ينعمن في البلاد اليونانية بحقوق وامتيازات لا تنعم بها النساء الحرائر. فهن يجلسن إلى الرجال سافرات الوجوه، ويتحدثن إليهم، ويحاورنهم في المواضيع الأدبية والفنية والفلسفية والعلمية، ويستأثرن بعطفهم وحضورهم ساعات مديدة من النهار والليل، وينظمن منازل خاصة بهن، يستقبلن فيها الناس على اختلاف طبقاتهم، وتعدد منازعهم وبلدانهم وأذواقهم وألوانهم. ويتفننن في تزيين خدورهن بالطرف والمتاع النفيس، ويسهر القانون على راحتهن، وينظم حياتهن ويشجعهن في عملهن.

مرد الأمر أن المشرع اليوناني، عندما أذن لهؤلاء السميرات باحتراف مهنتهن علنا، على رغم ما تؤدي إليه تجارتهن من تهديم الأسر، ونشر الفوضى في المنازل الزوجية، حاول القضاء جهده على عادة مفسدة تفشّت في جميع المدن المخرقة في الترف، أي التدله بالغلمان، هذه العادة الهدامة التي تسربت فيما بعد إلى البلاد الفارسية، ثم انتقلت إلى مدينة العرب. لعل هذا كان السبب الرئيسي في انتشار بيوت السميرات، وفي

محافظة الشرع عليها، وذئوع هؤلاء الجواري في الحياة الاجتماعية الإغريقية.

هن عادة نخبة تختار من جماعات الجواري، يعهد بهن صغيرات إلى نساء ماهرات في تربية أمثالهن، واقفات على أنواع الغواية، وأسرار الفنون الجميلة، ولا يفارقن معلماتهن إلا بعد أن يحذقن جميع ما يحتجن إليه في حياتهن المقبلة. يفد عليهن الفتيان الذين يطمحون إلى التعرف على ذوي المقامات الرفيعة، ويتردد عليهن أيضا الرجال الذين جازوا نصيبا من المقام ورجال الشرع والفلاسفة، وكل من ينعم بدخل ثابت. فكل من له حظ من النفوذ، أو يسعى ليكون له بعض المقام يحاول جاهدا أن يكون له مجلس في منزل من منازل السميرات، من الزعيم السياسي الوقور إلى الأفاك المغامر، وما يتراوح بينهما من أجناس الأناسي وألوانهم. فتزدحم القاعات بالفيلسوف الزري المظهر، والتاجر الصوري، والنوتي الجاف الطباع، الملوح الوجه، الخشن اليدين، الذي يحلي أصابعه القاسية بالخواتم الثمينة من صنع سورية وفينيقية، والسري الأحرق الذي يضحي بثروته مقابل ابتسامة تنفرج عنها شفتا الغانية، والمصارع المجدول العضلات الذي يحدث الصخب عن نتائج الأولمبياد، ويمني النفس بانتصارات باهرة في مقبل الأيام. وكان اليونانيون، وهم مشهورون بحب التطلع، والوقوف على ما يجري من الحوادث، مغرمين بالوفود على مثل هذه الاجتماعات حيث يتلاقى الشرق والغرب والرصانة المغالية في الائتاد، والطيش المتطرف في التهور.

وينفق الضيوف في هذه البيوت على قدر استطاعتهم من مالهم ولطفهم في إيناس السميرات. ولم تكن الزوجات الشرعيات في فهم هؤلاء إلى الحافظات على المنزل، القيمات على المتاع، المخلدات لاسم الأسرة

بما ينجبته من الأولاد في سبيل الجمهورية الخالدة.

الحياة في مجالس السميرات زاخرة بالجديد من كل فن وعلم، تمتزج فيها الأنغام بالرقص، وتهرق الخمور المعتقة، ويشيع فيها المرح، وتضيع الفروق العرقية، وتطلق الألسنة من عقالها، ويتعالى دخان البخور، وتسكب العطور على الوجوه والنحور، وتبدي السميرات القليل الذي بقي خافيا من أسرار جمالهن. وتتشابك أحيانا أحاديث العلم بالجدل السياسي والفلسفي. والسميرات العارفات بفنون الكلام، الحافظات لأشعار الأقدمين والمحدثين يوشين أحاديثهن بما في ذاكرتهن منها، ويرتجلن أحيانا أبياتا تناسب المقام، مما يحول تلك المجتمعات إلى حلقات ثقافية نادرة المثال. ولهذا أسرف رجال الفكر والعلم واللغة في التردد على السميرات للتمتع بمطالعهن، والإصغاء إلى ما يدورهنك من المباحث البارة.

كانت علاقات هؤلاء بالسميرات بريئة أحيانا، لأنهن كن يحصرن قلوبهن وفتنتهن الكاملة في الذين ينفقون عليهن الأموال، فيقضون القسم الأوفر من وقتهم في منازلهن، ويشتركون في حلقات الطرب والأدب وينظرون إلى تزاحم الضيوف حول ربة البيت وسعيهم إلى اكتساب عطفها ، دون أن تتأثر في نفوسهم أوتار الخير. فالسميرة كانت إذن كناية عن زوجة ثانية، ولكنها أكثر علما، وأرشق حركة، وأبرع جمالا من تلك التي تنزل في الخدر. وأبناؤها يتبناها الرجل المسؤول، ويضمهم إلى أولاده الشرعيين.

مآدب السميرات

أهم الأدوار التي يقوم بها هؤلاء السميرات اشتراكهن في الاحتفالات

والمآدب التي تختلط فيها فنون الغواية بالأدب الرفيع، والإسراف في الطعام والشراب بالبراعة في الرقص والألعاب البهلوانية. وفي الولائم يتناول اليونان أحاديث السياسة والفن والأدب وأخبار الفتوح، ويفصلون النظريات الفلسفية الشائعة، ويتناشدون القصائد، ويبيدي كل من الشرب أقصى ما في نفسه من براعة، ليفتن الحاضرين، ويسترعي انتباههم.

تقام الولائم عادة عند المساء في المنازل الخاصة، وتزين قاعة الطعام بالغصون الخضراء، وتنثر الزهور على الأرض، وتوقد الشموع، وهي بشكل ثريات تقوم على عمد مركزة بالأرض على قاعدة مثلثة الأقدام، وتضاء إلى جانبها سرج الزيت أو توزع في أنحاء القاعة. وعندما يبدأ الضيوف بالوفود يقف العبيد والجواري عند المدخل لاستقبالهم والترحيب بهم، فينزعون أخفافهم، ويغسلون لهم أيديهم وأرجلهم في آنية من الفضة أو الذهب. ويعطرونهم بالروائح الطيبة، ويجعلون على رؤوسهم أكاليل الزهر.

من تقاليد هذه الولائم أن لا يتوجه المدعو رأساً إلى قاعة الطعام، بل أن يبدأ بالتفرج على غرف البيت، إلى أن يصل عرضاً إلى المائدة، فيبيدي عندئذ إعجابه الشديد بما يراه من ترتيب وتنظيم، ومن ريش فاخر، وزهور عطرة، وأنوار مشعة، وأسرة منتظمة. ويتقدم فيأخذ له مقعداً حول المائدة، وهي مستطيلة قائمة الزوايا من الخشب الصقيل، عارية من الأنماط، أما المقاعد فهي على أنواع: منها المفردة ذات المساند المرتفعة، يرقى إليها المدعو بدرجة أو اثنتين، ومنها المفردة البسيطة، ومنها أسرة مستطيلة، وهي عادة ثلاثة مقابلة لجهات ثلاث من المائدة، وتترك الرابعة لتقديم ألوان الطعام.

يتسع كل واحد منها لثلاثة أشخاص أو أربعة فيتمدد عليها المدعوون، ويتكئون على الذراع اليسرى، ويتناولون ما يشاؤون باليمين، وتفصل بينهم مساند مغطاة بالنسيج النفيس الموشي. وقد اقتبس اليونان عادة استعمالها عن الشرقيين، ولا يعرف تماما تاريخ انتقالها إلى المنازل الإغريقية، ومن الثابت أنها كانت شائعة في المآدب العامة أيام أرسطو. أما المدعوون المتقدمون في العمر أو الضخام الأجسام، فكانوا يؤثرون الجلوس على المقاعد العادية أو البقاء وقوفاً.

يجعل بين أيدي المدعويين الممتازين كؤوس كبيرة محلاة بالذهب ومزينة بالنقوش، وتنقل أحياناً من مدعو إلى آخر ابتداء من اليمين، فيشرب كل منهم بدوره. أما الطعام فهو متعدد الألوان، لأن الإغريق عرفوا جميع الطيبات التي يلذ بها المعاصرون، فتزخر موائدهم بلحوم الخنزير والجدي والعجل والأرنب والأوز والبط والدجاج والحجل والحمام والسماوي وسواها. غير أنهم لم يعرفوا السكر في صنع الحلويات والمربيات، بل استعاضوا العسل عنه. وأما الخموز فكثيرة الأنواع لديهم، يمزجونها أحياناً بالثلج الذي يستقدمونه من أعالي الجبال، أو يدلونه في الجرار المملوءة به إلى أعماق الآبار الباردة.

لم تكن الأطعمة التي تقدم للزائرين سائلة، ولا تستعمل على الموائد إلا ملعقتان اثنتان كبيرتان، يسكب بالواحدة الطعام في الأطباق، وتغرف بالثانية الخمرة من الأباريق لتوضع في الكؤوس. يتألف الطعام في مثل هذه الولائم من ثلاثة ألوان: الأول من الخضر، ولاسيما القنبيط، ومن الصدف والبيض، والثاني من الطيور الداجنة وطرائد الصيد، والثالث من الحلويات والسكريات

والفواكه. وتقدم كل هذه الألوان مقطعة مجزأة ليسهل تناولها باليد لأنهم لا يستعملون الشوك والسكاكين. وعند تقديم اللون الثالث تبدأ المنادمة فتقبل عندئذ، الجواري الموسيقيات والمغنيات والراقصات، وقد طلين وجوههن بالمساحيق، وسودن عيونهن بالكحل، وأطلن أشعار الجفون وصلبنها باستعمال مسحوق المسك، وأخذن بأيديهن القيثارات والنايات فيبدأن بالرقص والغناء والضرب على الآلات أو النفخ فيها. وأشهر هؤلاء الجواري هن اللواتي يلعبن على القيثارات الصغيرة، ويرافقن نقرها بالحنانين ورقصهن. ولم يكن يتوصل إلى إجادة هذه المهنة إلا السميرات المدربات المخرجات على أيدي الاختصاصيين. يرتدين الأثواب الموشاة برسوم الزهر الخاصة بهن وحدهن، وهي عادة أثواب شفافة وكن رشيقات الحركة لمغالاتهن في التمرن والرياضة على فنهن، بارعات في إبراز لهيئات المثيرة للشعور وكانت الأجور التي تدفع لهن باهظة، هذا إذا لم يكن ملك صاحب الدعوة أو صاحبها. ويعاونهن جوار من نوع آخر. ينتسبن عادة إلى جزر الأرخبيل أو إلى البلاد السورية، فيرسمن بأقدامهن وكل عضو من أعضائهن في مخيلة المدعووين صورة مثيرة. وتكاد ثيابهن المجزومة الشفافة لا تخفي شيئاً من أسرار أجسامهن. وفي غمرة ثورتهن الفنية يتوصلن إلى فك العقدة التي تضم شعورهن فتنتثر سوداء على أكتافهن البيضاء، وحل العقدة الثانية التي تربط الغلالة المطيفة بأجسامهن، فيظهرن عاريات، وينطرحن على رخام القاعة وهن في حالة من السكر الفني. وقد ترقص الجواري أحيانا مترافقات حسبما يرغب المدعوون أو يشاركنهم بعضهم. وتقوم أخريات بحركات بهلوانية أثناء الرقص والغناء، فيرقصن على لوحة من الخشب، غرزت فيها رءوس حادة من المعدن، فيختلن

بخفة بحيث لا يدسن على المسامير، وتارفق الموسيقى الموقعة جميع هذه الأنواع من الرقص.

في هذا الجو المملوء بالعطور وروائح الخمرة والمساحيق والأطعمة كان الرجال يكشفون عن صدورهم، يستلقون على الوسائد، وأجسامهم تلمع من الزيت المعطر أو العرق المتصبب منهم، وتقطر من شعورهم العطور المهركة عليها وفي هذه الأثناء، يتسرب إلى قاعة المأدبة أناس غرباء متطفلون، فيشتركون في الشرب والرقص والغناء. ومن عادة المدعوين الإنصراف أحيانا إلى بعض الألعاب، ولاسيما ذلك النوع الأثير عندهم وهو يقوم على قذف ما تبقى في كؤوسهم من الخمر إلى ناحية في الغرفة، متخذين من أحد الأوعية هدفا لثمالاتهم، فتمتلئ أرض القاعة بالشراب المسفوح. ويسيل إلى العتبة لأن السكارى يخطئون غايتهم.

وعندما يبلغ الخمار أوجه، يتبارى الشرب في استمالة الراقصات، فيتوزعنهن، ويحدث أحيانا ما ليس من حدوثه بد. ولا يطلب الذين غالوا في شربهم من هؤلاء السميرات إلا أن يقدمن لهم إناء يرجعون فيه ما طعموه وشربوه. وكل هذا يحدث أمام أنظار الجميع، دون أن تثير هذه المشاهد أنفة أو خجلا. وعندما يتنفس الفجر يتسلل بعضهم إلى منازلهم، ويبقى الآخرون غارقين في سبات عميق. وهذه المجالس كانت محرمة على الحرائر، فتقتصر على الرجال والجواري.

الجواري في الشرع

الرقيق الروماني

قامت الحياة الاجتماعية في مختلف المدينيات والعصور على وجود طبقة من الرقيق، ووجود سيد فاتح قاهر غني، وعبد مستضعف ذليل يكدح في سبيل مولاه. وليس خلو مجتمعنا من هذه الطبقة إلا حدثا معاصرا لنا. لأن تحرير الرقيق أمر اضطرب به القرنان الثامن عشر والتاسع عشر، ولا يزال في كثير من بقاع العالم أثر من رق وبقية من استعباد، وما انفكت بعض المنظمات العالية ناشطة في محاربة مثل هذه التجارة الرابحة. أما المدينيات القديمة فقد أقرب الاستعباد، ورأت فيه نظاما طبيعيا لا قيام لحياة الفاتح والسيد إلا به، فأخذت به الشعوب الغالبة، وشرعت لهذه الطبقة من الناس قوانين تنظم حياتها، وتحدد واجباتها، ولا تعني بحقوقها إلا في القليل النادر. ولم يكن لدى الرومان بادئ الأمر إلا عدد يسير من الرقيق.

غير أن الفتوح التي قامت بها جيوشهم فيما بعد أدت إلى الاستيلاء على عدد كبير منهم، وعرضهم في أسواق الرقيق بحيث بلغ ما حمله أحد القواد إلى بلاده مائة وخمسين ألفا دفعة واحدة. وكانت جموع الرقيق رجالا ونساء يدخلون المدينة الخالدة صفوفًا صفوفًا في مواكب القواد المظفرين، وبينهم كثير من بنات الملوك والأمراء والقواد المسييات، وقد بيع منهم في دبلوس الجزيرة اليونانية عدة آلاف في يوم واحد. ومنذ ذلك الحين انتشر

الرقيق في المجتمع الروماني حتى طغى عدده على الأحرار بعد أن اشترى هؤلاء المئات والألوف للقيام بما تطلبه الحياة الاجتماعية من أعمال. فيقيم المتعلمون وذوو الاختصاص بالموسيقى والغناء والطهي والخدمة قرب مواليتهم، وينصرف ما تبقى منهم، وهم الأغلبية الساحقة إلى الحقول فيعنون باستنباتها لحساب أسيادهم، أو يعملون في المناجم ومقالع الحجارة أو المحارف، وتقوم النساء بما قامت به الجوارى من الأعمال في المدنية العربية فيما بعد.

كانت معاملة الرقيق في غاية السوء، لأن الشرع الروماني يعرض له كما يعرض لشئ من الأشياء أو سلعة من السلع. فهو كما يقول مؤرخ لاتيني " آلة تجيد الكلام " إذا هفا هفوة صغيرة نزلت به أشد العقوبات، كالضرب بالسياط والسجن. لهذا كانت الثورة تختمر في صدور هذه الطبقة، فتتشب الحروب بينهم وبين أسيادهم، وتنتهي المعارك في أغلب الأحيان بالفتك بهم وتعذيبهم، وسلبهم القليل مما حصلوا عليه من الحرية. أما إذا رضي السيد عن عبده فبوسعه أن يعتقه. فيتقيد العبد المحرر عندئذ ببعض العلائق بسيده السابق شبيهة بحقوق الولاء عند العرب، وينعم العبد المعتوق بحق التملك والتصويت، ولكن أحفادهم وحدهم يصبحون مواطنين يتمتعون بامتيازات وحقوق الأحرار كاملة.

في الشرع الإسلامي

أما في الشرع الإسلامي فالجارية هي كل امرأة أخذت أسيرة في الحرب، أو نقلت قسرا من بلاد العدو، على شريطة أن تكون غير مسلمة،

لأنه لا يجوز، لأي سبب من الأسباب، أن تسبى المسلمة وتسترق، ولا عبدة في ما ذهبت إليه جماعة القرامطة أو غلاة الخوارج، أو هي التي تلدها أمة مملوكة، ويكون أبوها عبدا، أو غير مالك لها، مسلمة كانت أم كتابية، أو هي التي تؤخذ شراء من أسواق الرقيق، فيبيعها فيها النخاسون. وهؤلاء ليس بوسعهم استرقاق المسلمين أو الكتابيات الذميات اللواتي يعود أصلهن إلى ديار الإسلام، وإنما يأتون بالرقيق من البلدان الغربية، ويتاجرون به. لأن الإسلام حرم السبى منذ قضاؤه على عادة الغزو المتأصلة في نفوس البدو. ولاشك أن الإسلام قد ارتقى بالمرأة ارتقاء بينا عندما حفظ لها حريتها بتحريمه اختطافها. في حين أن الشرع الإسرائيلي يجيز لليهودي أن يستعبد يهوديا آخر لمدة معينة لا تزيد على ست سنوات، إلا إذا ألح العبد على البقاء في كنف مولاه، فله أن يحتفظ به. وقد جاء في سفر الخروج ما نصه: "إذا ابتعت عبدا عبرانيا، فليخدمك ست سنين، وفي السابعة يخرج حرا مجانا، وإن دخل وحده فليخرج وحده، وإن كان ذا زوج فليخرج وزجه معه، وإن زوجه مولاه بامرأة فولدت له بنين أو بنات، فالمرأة وأولادها يكونون لمولاه، وهو يخرج وحده، وإن قال العبد قد أحببت مولاي وزوجي وبني لا أخرج حرا، يقدمه مولاه إلى الله أو إلى مصراع الباب أو قائمته ويثقب مولاه أذنه، فيخدمه إلى الأبد. وإن باع رجل ابنته أمة، فلا تخرج خروج العبد، وإن كرهها مولاه الذي خطبها لنفسه يدعها تفك، وليس له أن يبيعها لقوم غرباء، لأنه قد غدر بها".

أحوالهن الشخصية

وضع أصحاب المذاهب الفقهية والمشرعون قوانين تنظم حياة

الجواري وأحوالهن الشخصية، وكل ما يعود إليهن من رق وعتق وزواج وطلاق. نتج عنها ان اللقيطة حرة في جميع أحكامها ومسلمة، ولو كان ملتقطها ذميا، ما لم توجد في مقر أهل الذمة وكان ملتقطها غير مسلم. ففي الحالة الأولى تنشأ على الإسلام، وتكون حرة، وينفق عليها من المال الخاص باليتامى والمساكين، وتتزوج وتنعم بجميع الحقوق المدنية العائدة إلى بنات جنسها، دون أن تمس الحاجة إلى معرفة والدها، والسبب في تركها على قارعة الطريق، أو رميها على أبواب المنازل. وفي الحالة الثانية، أي إذا عثر عليها في منطقة يقطنها النصارى أو اليهود أو المجوس يعهد بها إلى طائفة الملتقط، فتعني بأمرها، وتسهر عليها، وتكون حرة مطلقة كجميع الذميات الحرائر. أما الجارية التي تولد للمسلم من أمته فتكون حرة إذا اعترف بها والدها، وفي مثل هذه الحالة يجب على المولى أن يكتب صكا ليلحقها به، ويكون نصه كما يلي:

" أقر فلان بأنه كان قبل تاريخه وطئ مملوكته التي بيده ومملكه المقررة له بالرق والعبودية، المدعوة فلانة، الفلانية الجنس، الوطاء الصحيح الشرعي، واستولدها ولدا (ذكرا أو أنثى) يسمى فلانا، الطفل يومئذ، وهو الآن في قيد الحياة، وأنه من صلبه ونسله، ونسبه لاحق بنسبه ".

فإذا ولدت الجارية لسيدتها أصبحت أم ولد، فلا يجوز بعدئذ أن يبيعها أو يهبها، وتصبح حرة بعد موت زوجها، فلا يرثها الوارثون، ولا يستدها الدائنون. وهذا الوضع يخالف كل المخالفة ما يقره الشرع المسيحي من منع اقتراب الرجل من أمته، لأنه يعد ذلك زنى صريحا، فيحمل الولد عار والده طول حياته، وتخول الزوجة الشرعية أن تبيع

الجارية أو تقصيصها عن المنزل. ويخالف أيضا الشرع الروماني الذي يقرر أن المولود تابع لحالة الوالدة من حيث الرق.

والأولاد الذكور والإناث الذين يعترف بهم المولى المسلم يرثون والدهم أسوة بإخوتهم وأخواتهم الذين ولدوا من الحرائر وكثيرا ما كان السيد يحرر أمته أم الولد، ويتزوجها زواجا شرعيا رفعا من شأنها وشأن أولاده منها، فتتمتع بجميع الحقوق الخاصة بالزوجات الحرائر وإذا ما حررت الجارية تمهيدا لعقد النكاح الشرعي فبوسعها أن ترفض الاقتران بمولاها السابق، وعندئذ تخرج من عصمته ولا يحق له أن يعيدها إلى ملكه، بل تطلق حرة من القيود التي فرضها الشرع في معاشره الجواري ما فرض على الزوج من تحريم الاقتراب من أختين، والام وابنتها والعمة وابنة أخيها وغيرهن من ذوي الرحم المحرم، جريا على السنة المتبعة في النكاح الرسمي، كما أنه حرم على رجلين أن يشتريا جارية فيقتربا منها معا، لأن الشرع يعاقب على مثل ذلك ويعتبرها زنى صريحا. وكان بعض الأحرار يتزوجون جواري لسن ملك أبويهم، بعد أن يدفعوا لأسيادهن الصداق المترتب عليهم. وفي مثل هذه الحالات يحدد الشرع الشروط التي يجب أن تتم في الحر الذي يود التزوج من أمة غيره. فيقضي أن لا يكون متزوجا بحرة، وأن لا يكون لديه مال يكفي لصداق حرة، وأن يخشى عليه من التهور في حياة المجون، بحيث يكون هذا الزواج أخف مؤونة عليه من زواج الحرائر، وأحفظ لنفسه ودينه، ويكتب صك بهذا النص:

"هذا ما أصدق فلان فلانة مملوكة فلان، المقرة لسيدها بالرق والعبودية، عندما خشي على نفسه العنت - الفجور والزنا - أو خاف

الوقوع في المحذور، لعدم الطول، وأنه ليس في عصمته زوجة، ولا يقدر على صداق حرة على ما شهد له به من يعينه في رسم شهادته، صداقا تزوجها به مبلغه كذا وكذا، وولى تزويجها إياه بذلك سيدها المذكور بحق ولايته عليها شرعيا".

ويذيل بالفقرة التالية التي تضاف على العقد:

"وشهدت البينة أن الزوج المذكور فقير ليس له موجود ظاهر، ولا مال باطن، ولا له قوة على نكاح حرة، ولا في عصمته زوجة، وأنه عادم للطول".

أما إذا زوج السيد أمته لعبده فيكون النص كما يأتي:

"هذا كتاب تزويج أكتبه فلان لعبده فلان من أمته فلانة، المقر له كل منهما بالرق والعبودية، وهو أنه أشهد على نفسه أنه زوج عبده المذكور لأمته المذكورة تزويجا صحيحا شرعيا بسؤال كل منهما لسيده المذكور في ذلك. وقبل الزوج المذكور من سيده عقد هذا النكاح لنفسه قبولا شرعيا".

وليس من اعتبار لإذن الأمة في مثل هذه العقود، ولا يعين الصداق، لأنه يعود إلى السيد عند وجوده، وفي مثل هذه الحالات يكون الأولاد الناتجون عن الزواج ملكا للمولى، يتصرف بهم وبوالديهما كما يريد. غير أن الشرع الإسلامي قيد السيد في حريته بتحريمه التفريق في المبيع بين الزوج وزوجته والوالدين وأبنائهما..

طبقاتهن

إذا ألقينا نظرة شاملة على الجواري من حيث موقف الشرع منهن رأينا أنهن ينقسمن إلى طبقات متعددة: منهن التي تسترق طول حياتها، ثم تباع أو تورث فيما بعد، ومنهن التي يبيعها مولاهما أو يهبها في حياته، والتي تلد له فتتحرر بعده، والتي يوصي بعقدها حين وفاته، فلا يجوز بيعها، وتكتب لها الوثائق. وكان بعض الأسياد يعتقدون جواريتهم أو عبيدهم مقابل مبلغ يدفع لهم منجما، حتى إذا استوفى المولى القيمة المتفق عليها أصبحت الجارية حرة، وتسمى هذه الحالة المكاتبية. ويكون العقد بالنص الآتي:

" كاتب فلان مملوكه (أو مملوكته) الذي بيده ومملكه المقر له بالرق والعبودية المدعو فلانا، الفلاني الجنس، المسلم، لما علم فيه من الخير والديانة والعفة والأمانة ولقوله تعالى " فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيرا " على مال جملته كذا وكذا، يقوم به منجما في سلخ كل شهر كذا وكذا و أبرأه منه.... وأذن له سيده في التكبس والبيع والشراء، فمتى أوفى ذلك كان حرا من أحرار المسلمين، له ما لهم، وعليه ما عليهم، لا سبيل لأحد عليه إلا سبيل الولاء الشرعي، ومتى عجز، ولو عن الدرهم الفرد، كان باقيا على حكم العبودية ". فإن وفي العبد (أو الجارية) مال الكتابة كتب ما مثاله:

"أقر فلان بأنه قبض وتسلم من مملوكه فلان المسمى باطنه جميع المبلغ المعين وهو كذا وكذا على حكم التنجيم. وصار ذلك بيده وقبضته وحوزه فبحكم ذلك صار فلان حرا من أحرار المسلمين على ما تقدم

ويؤرخ ". وإذا تزوج رجل حر أمة بغير إذن مولاهما يكون الزواج ملغي، لأن المولى هو المسؤول عنها. أما إذا أعتقها السيد بعد العقد. فيكون التحرير إمضاء للزواج وإجازة له. وللمولى أن يكره أمته أو عبده على الزواج بمن يريد. أما الأمة فلأن نتاجها لمولاهما، فهو إنما يعقد على ملك نفسه بتزويجها، وله ولاية العقد على ملك نفسه بغير رضاها كما لو باعها. وأما العبد فللمولى أن يزوجه من غير رضاه في شريعة أبي حنيفة النعمان، وليس له مثل هذا الحق عند الإمام الشافعي.

أما إذا تزوج رجل امرأة على أنها حرة، ثم علم بعد ذلك أنها أمة قد أذن المولى لها بذلك فهي امرأته، إن شاء أمسك وإن شاء طلق، لأن ظهور رقتها نوع من أنواع العيب، غير أن ما ولد له منها فهو حر. وإن كان الزواج تم بدون تصريح المولى فلهذا أن يتسردها ويعقرها.

@booka.

الكتاب الثاني

أشهر الجوّاري والمغنيات

تأليف

محمود موسى

@booka

@booka.

ألمس المغنية

فاقت ألمس في عهدها كافة المطربين والمطربات واستطاعت أن تحوز شهرة فائقة وأن تجمع أموالاً ضخمة برقة شمائلها وحلاوة صوتها الشجي، وكانت ألمس في أول عهدها ابنة رجل فقير يشتغل بالصباغة وكان مبدأ ظهورها في نهاية عصر سعيد باشا وأوائل حكم إسماعيل باشا واستطاعت أن تظفر بالأولوية على سائر المغنيات وخاصة ساكنة المغنية الشهيرة إذ ذاك التي كانت قد أسنت وكانت ألمس عندئذ في الثانية عشرة من عمرها وكان اسمها الحقيقي سكينه ولكنها لقبت عند ظهورها باسم ألمس واشتهرت به بعد ذلك طيلة حياتها، وفي بدء ظهورها أرادت بعض الأميرات أن تغني بعض الفتيات ذوات الصوت الرخيم فأجرت امتحاناً لهن ففازت ألمس عليهن جميعاً وطلبت منها الأميرة أن تقيم بقصرها ولكن ألمس اعتذرت بأنها لا تستطيع مفارقة والدها الفقير فقبلت عذرها وانصرفت وما لبثت حتى اشتهرت. وطبق صيتها الآفاق ولما رأت ساكنة ذلك ضمتهإ إليها لتكون ضمن فرقته ولكنها فاقت عليها فحققت عليها ساكنة كما حسدها كافة المغنين والمغنيات وكان عبده الحمولي أشهر المطربين في ذلك العهد فأعجبت بها وقيل إنه أخذه الخوف من شهرتها أن تطغى عليه أيضاً فأخذها بالحيلة والمكر والتودد بعد أن رأى أن الشدة والعداوة لا تجيدان فتياً وأظهر لها الحب حتى تزوجها فلما صارت زوجة له منعها من الغناء وتقدم هو فعادت له شهرته الأولى وأسف الناس على

احتجاب ألمس عن عالم الغناء.

وافتح عبده الحمولي محلاً تجارياً من مالها وماله ولم تلبث تجارته
أن أفلس لإسرافه وكانت ألمس قد حملت منه ولكنها توفيت قبل أن تلد
وهي في نضارة الشباب وقيل أن خسارة عبد الحمولي بلغت 30 ألف جنيه
في تجارته وحزن بعدها عبده عليها وأنشد فيها أغاني مثيرة محزنة.

@booka

بذل المغنية

ولدت بالمدينة وتلقت تربيتها بالبصرة، وقد اتصفت بكثرة روايتها للأغاني وقيل أنها كانت تغني ثلاثين ألف صوت وقد وضعت كتاباً في الأغاني يشتمل على 12 ألف صوت، وكانت جميلة المحيا بديعة التكوين رقيقة الحاشية والحديث وأخذت تعليمها الموسيقى عن مشاهير الفنانين أمثال إبراهيم الموصلي واشتراها جعفر بن محمد الهادي ولما أتى نبؤها إلى محمد الأمين بن هارون الرشيد بعث إلى جعفر يرجوه أن يريه إياها فرفض فزاره الأمين في بيته فاستمع إلى ألوان من الغناء لم يسمع مثلها قط. فطلب من جعفر أن يبيعه إياها فقال له "يا أمير المؤمنين إن من كان مثلي لا يبيع جارية" فقال له إذن فهبها لي فأجابه بأنها مدبرة منزله فلما رأى الأمين إصراره احتال على جعفر حتى أسكره وأمر بإحضار "بذل" فحملت معه فلما أفاق جعفر من سأل عنها فعلم الحقيقة، وسكت وبعث إليه الأمين فحضر إلى قصره وبذل جالسة بين يديه فلم ينطق بحرف. أما لأمين فإنه أهداها مبلغاً جسيماً من المال قيل أنه ألف ألف درهم وظلت بذل المغنية في دار الأمين إلى أن قتل فخرجت فكان ابن جعفر مولاهما السابق وابن الأمين كل منهما يدعي أنه مولاهما فلما ماتت ورثها عبد الله بن الأمين وتركت من بعدها جواهر كثيرة كان الأمير قد أهداها إليها عدا ما أنفقته منها. ولم تقبل بذل الزواج طيلة حياتها مع أن كثيرين من كبار رجال الدولة والقواد والكتاب تقدموا إليها ولكنها رفضت.

وكان يحبها علي بن هشام ويتكتم حبه كما كان يعظمها إبراهيم بن المهدي أخو الرشيد ثم تغير عليها فمضت إليه وغنت ألواناً من الغناء حتى أخذ بما سمعه منها وكان كل ما غنته في هذه المرة جديداً لم يسبق له أن سمع مثله من قبل منها حتى ثمل من فرط التأثر وعاد يسترضيها فرفضت وعبثاً حاول أن تسامحه بتضرعه لها.

وقيل إنها اجتمعت مرة في حضرة الخليفة المأمون وكان إسحاق إبراهيم الموصل - وهو أشهر مطرب وعالم بأسرار الغناء في الدولة العباسية - فغنت ثلاثة أصوات وسألت إسحاق عن صانعها فلم يعرف فقالت: والله يا أمير المؤمنين إن هذه الأغاني والتلحين لأبيه وأخذتها عنه فإذا كان هذا لا يعرف غناء أبيه فكيف يعرف غناء غيره؟ فذهل إسحاق من قولها وبدا عليه تأثر شديد.

برقا جارية علاء الدين

اشتراها علاء الدين البصري، وكانت آية في الجمال والبلاغة فهام بها
وأسرف في الإنفاق عليها حتى أضاع ماله كله عليها فأشارت عليه أن يبيعها
إشفاقاً عليه فلما ذهب بها إلى السوق اشتراها حاكم البصرة بمائة ألف
درهم فلما قبض علاء الدين المال وهم بالانصراف أنشدت:

هنيئاً لك المال الذي حويته ولم يبق في كفي غير التذكر
أقول لنفسي رهن غم وكربة أقلّي فقد بأن الحبيب أو أكثرّي
إذا لم يكن للأمر عندي حيلة ولم تجدي شيئاً سوى الصبر فاصبري
فاشتد بكاء مولاها وأنشد:

فلولا قعود الدهر بي عنك لم يكن يفرقنا شيء سوى الموت فاصيري
أروح بهم في الفؤاد مبرح أناجي به قلباً طويل التفكير
فلما رأى ذلك حاكم البصرة الذي اشتراها تأثر وقال له إذا شئت
فخذها ولك المال وانصرفا في رعاية الله فإنني لن أكون سبباً في فرقة
محبين. فانطلق بها علاء الدين وهو يشكر هذا الرجل النبيل على صنيعه
وظلت عند مولاها إلى أن ماتت وهما في نعيم وطمأنينة وسعادة.

بصيص جارية ابن نفيس

كانت رائعة الجمال، متفوقة في الغناء، يتمنى كل من سمع بها أن نراها حتى قال فيها الشعراء أرق الشعر هياماً بها وبغنائها الأخاذ. ولعل قصتها مع مزيد أبي إسحاق أمتع قصص حياتها.

ذلك أن مزيد هذا كان مشهوراً بشدة البخل وحدث في مجلسها يوماً أن كان يحوط بها جماعة من المعجبين فجاء على لسانها ذكر بخل مزيد فراهنت أحد الموجودين وهو ابن مصعب أنها تستطيع أن تخرج من جيب مزيد البخل درهماً فقال لها مولاها أنها إذا استطاعت ذلك فأنه يعتقها ويهديها ثوباً موشى بالذهب فاشتريت عليه أن يرفع الغيرة في سبيل كسب الرهان فأذن لها.

وأقام مولاها وليمة كبيرة ودعا إليها مزيد البخل فأخذت تغني له أشجى الغناء وتسقيه خمراً حتى اهتز طرباً، فدعته إلى جانبها وهي تتمايل عليه طرباً وهو يقبلها والناس من حولهما يتعجبون لفرط صابته. ولما أحست بأنها قد ملكت فؤاده قالت له إن هؤلاء الناس الذين حولي لا قيمة لهم فهل لك أن تشتري لي بعض الزهور بدرهم واحد.

فما كاد يسمع منها لفظة النقود حتى هب مذعوراً كأنما لدغته حية ونسى هيامه وكلفه بها وخرج هارباً والناس يضحكون لشدة بخله وحرصه.

وظلت بصيص طيلة حياتها في عز وإقبال وهي تشجي الناس بأجمل الأغاني حتى فاقت أهل زمانها.

تحفة الزاهدة

كانت جارية لأحد تجار بغداد، وكانت آية في الحسن والدلال تتقن الإيقاع على العود وقيل أن سيدها أنفق في سبيل تعليمها أكثر ما يملك من المال وكان قد اشتراها بعشرين ألف درهم وغايته من ذلك أن يربح فيها حين يبيعها بعد أن تستوفي تعليمها.. وذات يوم كانت جالسة والعود في حجرها وهي تغني هذه الأبيات:

وحقك لا نقضت الدهر عهداً ولا كدرت بعد الصفو ودا
ملأت جوانحي والقلب وجداً فكيف ألد أو أسلو أو أهدا
فيا من ليس لي مولى سواه تراك تركتني في الناس عبدا
ثم هبت وكسرت العود وبكت منتحبة، فاتهمها سيدها بأنها تحب إنساناً وأخذ يستقصي الأمر ولكنه لم يستطع فاحترار في أمرها وهي دائماً الكآبة والسهر والهيام فلما أعيته الحيلة أدخلها البيمارستان وأودعوها حجرة منفردة مغلولة اليدين والقدمين فلما رأت ذلك اشتد بكاءؤها وأخذت تنشد وتغني:

أعيذك أن تغل يدي بغير جريمة سبقت
تغل يدي إلى عنقي وما خانتي وما سرقت
وبين جوانحي كبد أحس بها قد احترقت
وحقك يا منى قلبي يميناً برة صدقت

فلو قطعتهما قطعاً وحقك عنك ما رجعت

ومر بها أحد الصالحين وهي على هذه الحالة المؤسية فقابل سيدها
وطلب منه أن يبيعها له إذ أنه أدرك بأن غزلها الذي تقوله هو غزل صوفي
وأنها مسترسلة في هواها العذري. ولكن سيدها رفض بعد أن عرف قيمتها
وأطلق سراحها ومات بعد ذلك بمكة المكرمة.

@booka

تنوسة

هي جارية عليّة بنت المهدي العباسي وكانت رائعة الحسن، والبهاء
وأثقت فنون الغناء وساعدها على ذلك حلاوة صوتها وحدة ذهنها
وكانت تختلف إلى مجلس الأمير محمد بن عبد الله بن طاهر وترتاح
لمنادمته كما كان هو يشترك إلى استماع غنائها وله معها نوادر ظريفة.

وقد حدث لها أن كانت تجتمع في مجالس الشعراء فترد عليهم
بشعر غاية في الجودة وحسن الأداء ولعل أشهر ما وقع لها في هذا السياق
ما حدث بينها وبين أحد الشعراء ويدعى مان الذي كان يهيم بها فقد ظل
الاثنان يتناشدان الأشعار وقتاً طويلاً أمام الأمير وكان الأمير يحب منها أن
تغنيه هذا الشعر لأبي العتاهية:

حجبوها عن الرياح لأني قلت يا ربح بلغيها السلاما
لو رضوا بالحجاب هان ولكن منعوها يوم الرحيل الكلاما
وظل الأمير محمد يجزل لها العطايا حتى مات وظلت تنوسه معززة
مكرمة في منزل عليه ابنة المهدي حتى ماتت بعد أن عمرت طويلاً ولم
يتغير شيء من صوتها أو جمالها.

جنان

أحبها أبو نواس حباً شديداً ويقال أنه لم يصدق في حياته في حب امرأة كما صدق في حبها. وكانت جنان حساناً رقيقة متمكنة في فنون الأدب تروي الأشعار والأخبار. وقد قيل لأبي نواس أن جنان اعتزمت الحج فقال إني سأحج أيضاً فلما علم أنها خارجة إلى الحج سبقها إليه وما كان قد نوى الحج إلا بسببها.

وغضبت جنان على أبي نواس مراراً لأنه شغل بها بين الناس بشعره مما يخالف تقاليد العرب ولكنه كان يبعث إليها يصالحها ومرض أبو نواس ذات مرة ولما سأل بعض القادمين لزيارته عن جنان قيل له أنها كانت مريضة وشفيت فهب من فراشه وقال لقد برئت الآن من مرضي.

ويقال أن أبا نواس حاول مراراً أن يتزوج بها ولكنه لم يستطع ذلك ولم ينلها وتوفي قبلها وبقيت هي في منزل سيدها موفورة الهناء حتى ماتت بعد أبي نواس بمدة قليلة ويقال أن سبب وفاتها هو حزنها على أبي نواس لكونها لم تتصل به.

حبابة

كانت شجية الغناء خفيفة الروح ذات وجه فنان وكانت تتقن
الضرب على العود وتتفنن في ذلك وهي جارية يزيد بن عبد الملك وكان
يزيد بحب النساء فأولاهها حبه كله وترك لها أمر دينه ودنياه فكانت تعزل
من تشاء وتولي من تشاء، بل سيطرت عليه حتى صارت تحول بينه وبين
الصوم والصلاة حتى اشتهر أمره وشاع ذكره وقيل أنه خلا بحبابة ذات مرة
وظل وإياها في لهو وطرب ولعب يوماً كاملاً. ثم طلب طبقاً من الرمان
وبينما كانت حبابة تتناول بعضه إذ شرقت بحبة رمان فذهبت بروحها
وماتت فجئن جنون يزيد حزناً عليها ومضى يصيح التياً ولا يفارق جثتها
وقد طارت نفسه شعاعاً وهو يقبلها وينوح عليها وظل بجوارها على هذه
الحال حتى فسد جسدها وبدا ريحها فأودعوها القبر بالرغم منه. وظل
يبكيها دون انقطاع حتى حلت به منيته بعد أسبوعين وهو معانق
ضريحها فدفن إلى جورها وكان ذلك في عام 105 هجرية ومع أن يزيد بن
عبد الملك كان أميراً للمؤمنين إلا أن افتتانه بحبابة غلب كل شيء حتى
صارت لديه كل شيء، بل غالى في حبها غلوّاً لا يكاد المرء يصدق.

وقد قال يزيد فيها أشعاراً كثيرة، تنم عن فرط حبه لها وافتتانه بها
ومن أشهر ما قال قصيدته التي مطلعها:

إذا أنت لم تعشق ولم تدر ما الهوى فكن حجراً من يابس الصخر جامد

دنانيير

كانت دنانيير جارية يحيى بن خالد البرمكي وهي من مولدات المدينة وقد أدبها مولاها حتى أملت بفنون الأدب والشعر وامتازت في الغناء وصارت حجة في الغناء القديم، وأصبحت دنانيير بذلك من أكمل الجواري أدباً وأكثرهن رواية للغناء والشعر عدا ما اختصت به من جمال وفتنة وظرف فما لبث عندما رآها خالد بن يحيى البرمكي أن شغف بها واشتراها. وبلغ من فرط إعجاب هارون الرشيد بها أنه كان يذهب إلى دار سيدها ليسمعها حتى ازداد بها كلفاً وألفة وأراد أن يعرب عن شدة إعجابه بها فكان يهبها الهدايا النفيسة وبالغ في ذلك حتى وهبها ذات ليلة عقداً كريماً قيمته ثلاثون ألف دينار. ولما علمت زبيدة زوجته بذلك شكته إلى أهلها فعاتبوه على ذلك فأخبرهم بأنه ليس له في دنانيير مأرب ولكنه صوتها وحده هو الذي سحره وسأل معاتبه أن يسمعوا صوتها بأنفسهم أن كان يستحق شدة الإعجاب أم لا فتوجهوا معه إلى دار يحيى البرمكي فلما سمعوها عذروه وعادوا إلى زبيدة وأشاروا عليها أن تلح في أمرها فقبلت زبيدة ذلك وأهدت إلى الرشيد عشر جوار.

وكان اعتماد دنانيير في فنها على ما أخذته من "بذل" المغنية وهي التي تلقت عليها أصول الغناء كما أخذت عن كبار رجال الفن في العصر العباسي أمثال فليح وإبراهيم الموصلي وابن جامع وإسحاق الموصلي. ولدنانيير كتاب مشهور في الأغاني، وكانت تناظر ابن جامع وغيره

من أقطاب الغناء فتغلبهم وقيل أنها ابتدعت يوماً لحناً أعجب به مولاها غاية الإعجاب وذهب مولاها إلى إبراهيم الموصللي وطلب إليه أن يسمعه منها بنفسه ليرى هل هو كما وقع في نفسه فقدم إليها إبراهيم وغنت دنانير اللحن فطرب له إبراهيم واستعاده منها ثلاث مرات لعله يجد فيه ناحية ناقصة أو قابله للإصلاح فيصلحه وبنسبه إليه فلم يجد وقيل كذلك أنها كانت تغني غناء إبراهيم الموصللي فتحاكيه حتى لا يكون بينهما فارق وكان إبراهيم يقول ليحيى البرمكي تقديراً لشأنها إذا فقدتني ودنانير باقية فكأنك ما فقدتني.

وأقامت دنانير عند البرامكة دهرًا طويلاً لم تخرج من عندهم وشغف بها عقيل مولى صالح بن الرشيد فخطبها فردته فاستشفع عليها مولاها صالحاً وابن محرز وغيرهما فلم تحبه فكتب إليها هذه الأبيات:

يا دنانير قد تنكر عقلي وتحيرت بين وعد ومطل
شغفي شافعي إليك وإلا فاقتليني إن كنت تهوين قتلي
ما أحب الحياة يا أخت إن لم يجمع الله عاجلاً بك شملي
فكان كالكتاب على صفحات الماء، إذ لم يستطع أن يفوز بها، ومات ولم يجد لعلته دواء.

وأصابها مرض عجيب وهي عند البرامكة وهي أنها كانت لا تصبر عن الأكل ساعة واحد فكان يحيى يتصدق عنها في كل يوم من شهر رمضان بألف دينار لأنها كانت لا تصومه.

ومن أشد الحوادث في تاريخها تأثيراً أن هارون الرشيد دعاها بعد

نكبة البرامكة وأمرها أن تغني فقالت: يا أمير المؤمنين آليت علي ألا أغني
بعد سيدي أبداً... فغضب الرشيد وأمر بصفعها فصفت وأمرت بأن تغني
واقفة وأعطيت العود فأخذته وهي تبكي أحر بكاء وغنت بألحان تفتت
الصخور حزناً فرق لها قلب الرشيد وأمر بإطلاق سراحها فانصرفت.

@booka

الزرقاء

هي جارية ابن رامين وكانت وافرة الحسن، وقد اشتهرت بين أهل زمانها بالغناء وكان الناس يقصدونها لسماع صوتها ويبدلون أموالهم عندها واشتد ولوع يزيد بن الصيرفي بها فدخل عليها ومعه لؤلؤتان وقال لها لقد قدم لي تجار الحلي فيهما أربعين ألف درهم فرفضت بيعهما فقالت له هبهما لي فأجابها إني على استعداد بشرط فقالت، وأنا أقبل شرطك فقال أنه لا يعطيها إياهما إلا من فمه إلى فمها فغمزت إلى الخادم فخرج وكان يزيد واقفاً وهو ذاهل من فرط إعجابه بها بين يديها وجلس أمامها وتقدم إليها فأقبلت لتناولهما فجعل يروغ بفمه ليستكثر من مقابلتها فانقضت عليه وأخذتهما وقالت من هو المغلوب منا فقال والله لا يزال طيب هذه الرائحة في فمي مادمت حياً وتملكها جعفر بن سليمان وهام بها فلما رأى أبوه ذلك عاتبه ولكن الوالد لم يكذبها حتى بهت من جمال طلعتها ورقتها فرضى ولم يعتب بعد ذلك على ولده وسألها سيدها جعفر عما إذا كانت قد اتصلت بأحد غيره فلم تشأ أن تنكر عليه حادثة اللؤلؤتين، فاحتال سيدها حتى استطاع أن يستقدم الصيرفي صاحب اللؤلؤتين وظل يضربه حتى مات وبقيت الزرقاء عند سيدها تنعم بالسعادة والجاه إلى أن ماتت.

سلامة القس

هي جارية كان يمتلكها سهل بن عبد الرحمن بن عوف الزهري
فاشترها يزيد بن عبد الملك بثلاثة آلاف دينار وأعجب بها إعجاباً مفرطاً
حتى تملكته هيماً وشغفاً.

وسبب تسميتها بسلامة القس أن عبد الرحمن بن عبد الله بن أبي
عمارة كان فقيهاً عابداً مجتهداً في العبادة وكان يسمى القس لعبادته فمر
ذات يوم بمنزل مولاها فسمع غناءها فوقف يسمعه فرآه مولاها فقال له
هل لك أن تنظر وتسمع فأبى فقال له أنا سأجلسها بمكان لا تراها وتسمع
غناءها فرضى ودخل معه فغنته فأعجب بغنائها ثم أخرجها مولاها إليه
فشغف بها وأحبها وأحبته هي أيضاً وكان شاباً جميلاً وكثر تردده على
منزل مولاها فقالت له يوماً على خلوة أنا والله أحبك فقال لها وأنا
والله أحبك فقالت له أحب أن أقبلك فقال لها وأنا كذلك ولكنه لم يلبث
أن تذكر نفسه وهو المتعبد وخشى أن يغضب الله فقام وانصرف وعاد
إلى عبادته وله فيها أشعار منها:

ألم ترها لا يبعد الله دراها إذا طربت في صوتها كيف تصنع
تمد نظام القول ثم ترده إلى صلصل من صوتها يترجع
وله فيها أيضاً:

ألا قل لهذا القلب هل أنت مبصر وهل أنت يوماً عن سلامة مقصر

ألا ليت أني حيث سارت بها النوى جليس لسلمى كلما عج مزهر
إذا أخذت في الصوت كاد جليساها يطير إلها قلبه حين ينظر
فلذلك قيل عنها سلامة القس، وقد أخذت الغناء عن معبد وتعلمت
منه وكان يقدمها على غيرها من الجواري فلما مات حزنت عليه حزناً
شديداً وجاءت إلى مشهده وصارت تغرق الناس حتى قربت من النعش
وقد أضرب الناس عنه لينظروا إليها وهي ممسكة بعمود سريره باكية
وهي تغني قصيدة مطلعها:

قد لعمرى بت ليلي كأخي الداء الوجيع
ونجى الهـم مني بات أدنى من ضجيعي
ومن الغريب أن سيدها يزيد بن عبد الملك كان قد أمر معبد أن
يلحن لها هذه القصيدة فعلمها إياها فندبته يومئذ بتلك القصيدة. وكان
لسلامة مناظرات ومحاورات ومجالس أنس مع حبابة ويزيد غاية في
الروعة والبهاء.

عاتكة

كانت آية في الحسن وإشراق المحيا، متمكنة في الأدب، تعلمت الغناء ولها فيه بعض الحان وكان يختلف إليها بعض مغنيات مكة والمدينة فتحسن صلتهم وتجيّزهن وتطلب منهن أن لا يترددن عليها.

ووالدها هو معاوية بن أبي سفيان الأموي، وحدث في إحدى السنين أنه لم يحضر إليها أحد فاستأذنت من أبيها أن يسمح لها بالحج فسمح لها فتجهزت بجهاز عظيم لم ير مثله فلما وصلت إلى مكة رآها أحد الشعراء المبدعين وهو وهب الجمحي فأعجب بها وأنشد فيها شعراً رقيقاً، منه قصيدته التي قال فيها:

إني دعاني الحين فاقتادني	حتى رأيت الطبي بالباب
يا حسنه إذ سبني مدبراً	مستتراً عني بجلباب
سبحان من أوقفها حسرة	صبت على القلب بأوصاب
يذود عنها أن تطلبتها	أب لها ليس بوهاب
أحلها قصرًا منيع الذرى	يحمي بأبواب وحجاب

وشاع شعره فيها بأرجاء مكة واشتهرت وغنى بها حتى سمعتها عاتكة إنشاداً وغناء فطربت لها وسرت وبعثت إليه مهتدية بعد أن كانت قد غضبت منه لمحاولته مرآها خلصة أول مرة.

وعلم معاوية والدها بأمره فدعاه ونهاه عن حبه وحذره مراراً وكان

معاوية يعلم أن حب هذا الشاعر لا دنس فيه كما كان يعلم كذلك عفة
ابنته فلم ينله بسوء وظلت عاتكة تحب وهبا الشاعر حتى ماتت وكان
قد انقطع عن الغزل بها بعد أن أعطى والدها عهداً بذلك.

@booka

العبادية

هي جارية المعتضد بن عباد والد المعتمد وأهداها إليه مجاهد
العامري وكانت أديبة ظريفة وكاتبة مبدعة راوية للشعر، سريعة البديهة،
وكانت ذات إلمام تام بأنواع الغناء وكان المعتضد يميل إليها ميلاً شديداً
حتى آلهته عن بعض أعماله وكانت متوقدة القريحة ترجل الشعر
والأمثال ومن ذلك أنها كانت نائمة ذات يوم وكان المعتضد سهراناً فدخل
وهي نائمة فقال:

تنام ومدنفها يسهر وتصبر عنه ولا يصبر
فأجابته على الفور بقولها:
لئن دام هذا وهذا له سيهلك وجداً ولا يشعر
ولها غير ذلك نواذر وأشعار كثيرة..

عبيدة الطنبورية

كانت متمكنة في الغناء والأدب وقد شهد لها بذلك إسحاق إبراهيم
الموصلي وحسبها بشهادته فضلاً وكانت فاتنة الوجه وقيل أنه لم يعرف
امراً في الدنيا أعطر منها ومن رقيق غنائها:

كن لي شفيحاً إليك إن خف ذاك عليك
واعفني من سؤالي سواك ما في يديك
يا من أعز وأهوى ما لي أهون عليك
وحدث أن مر إسحاق ببیت أحد أصحابه فدعاه الرجل إلى بيته
وكانت هناك عبيدة فقال له إسحاق أنه يشتهي أن يسمعها على شرط أن
لا تذكروا أنني حاضر؟ فوعده بذلك، فغنت عبيدة:

قريب غير مقرب ومؤتلف كمجتنب
له ودي ولي منه دواعي الهم والكرب
أواصله على سبب ويهجرني بلا سبب
ويظلمني على ثقة بأن إليه منقلبي

فطرب إسحاق وبينما هو قائم لقضاء حاجة أخبرها أحد الجالسين بأن
إسحاق حاضر بينهم فلما جاء إسحاق ثانية ابتدأت تغني ولكن لحقتها
هيبة واختلاط وتلعثمت ففهم أنهم عرفوها بأنه موجود فقالوا له نعم
فقال إسحاق نقوم إذن فننصرف فإنه لا خير في عشتكم الليلة ولا فائدة

لي ولا لكم ثم انصرف.

وكانت عبيدة بنت رجل يقال له صباح وتلفت غناءها على أحد الأساطين ويدعى الزبيدي وقد حذقت الغناء على الطنبور وكانت مليحة الوجه خفيفة الروح ولم يزل شأنها يعلو حتى تقدمت وكبر حظها بعد فقرها. وتزوجها علي بن الفرّج وكان حسن الوجه غنياً وأنجبت منه بنتاً ولم تلبث أن ماتت ابنتها ثم تدهورت حالة زوجها فطلقها. وأصيبت عبيدة بنزيف أصابها وما لبث أن ماتت بسببه.

@booka

عتبة

هي جارية الخيزران زوجة المهدي وأم هارون الرشيد وكانت من قبل ذلك جارية لربطة ابنة العباس السفاح وكانت رقيقة بارعة الجمال وكان يعشقها أبو العتاهية وله فيها أشعار رقيقة ونوادر ظريفة. ومن ذلك أن سيدتها الأولى ربطة بنت السفاح أرسلتها مع تابع إلى سوق للرقيق لشراء رقيق وعتقهم، فتخفى أبو العتاهية في زي ناسك وأقبل عليها قائلاً: جعلني الله فداك. أن شيخ ضعيف كبير لا يقوى على الخدمة فإن رأيت أعزك الله شراي وعتقي فلك الأجر عند الله فأخبرت التابع المرافق لها بذلك قائلة له: إني لأرى هيئة جميلة وضعاً ظاهراً ولساناً فصيحاً ورجلاً أديباً فاشتراه وأعتقه فأجابها بالإيجاب فقال أبو العتاهية: أتأذنين لي أصلحك الله في تقبيل يديك فأذنت له فقبل يدها وانصرف، فضحك التابع وقال لها أتدريين من هذا فقالت لا فقال لها هذا أبو العتاهية وإنما احتال عليك حتى يقبل يدك.

ولما كثر تغزل أبي العتاهية بها شكته إلى مولاتها الخيزران، ودخل المهدي وهي تبكي بين يدي سيدتها فسألها عن خبرها فأخبرته فأمر بإحضار أبي العتاهية فأدخل إليه فلما وقف بين يديه اعترف الشاعر بهواه لها، فأمر المهدي بجلده ورأته عتبة وهو خارج مجلود فقال فيها بعض أبيات من الشعر متأثراً فاغرورقت عيناها بالدموع وعلم المهدي بذلك فأرسل إلى أبي العتاهية خمسين ألف درهم كاعتذار عن جلده فأخذ المبلغ وفرقه على

الفقراء فدهش المهدي لهذا العمل وسأله عن ذلك فقال له: ما كنت لآكل
ثمن من أحببت، فأرسل له المهدي بخمسين ألف درهم أخرى وأقسم عليه
أن لا يفرقها فأخذها وانصرف.

وانتهز أبو العتاهية إحدى المناسبات وأرسل إلى المهدي بهدية ثمينة
فأمر المهدي بأن يرسل له بملء قدر من الدنانير فأخذها بعد إلحاح
شديد. ومات أبو العتاهية بعد أن ملأت حياته حباً ومن شعره فيها:

ألا يا عتب يا قمر الرصافة ويا ذات الملاحاة والنظافة

زرقت مودتي وزرقت عطفِي ولم أرزق فديتك منك رافة

وصرت من الهوى دنفاً شقياً صريعاً كالصريع عن السلافة

ولم ينل أبو العتاهية طيلة حياته منها مأرباً مع أنه كان مغرمّاً بها
ومنعه من الاقتران بها ضعة نسبه.

العجفاء

كانت ذات صوت غرد كأنها البلبل، تعلق الناس بسماعها ومالت إليها القلوب وتحدث برقّة صناعتها كل إنسان وبلغت في أيام صباها مكانة لم ينلها غيرها من القيان وفي نهاية حياتها رماها الزمان بالفقر فأقامت تعلم جوارى الأمراء صناعة الغناء ثم استقرت في دار أحد الحكام وظلت لديه حتى اشتراها الأمير عبد الرحمن بن معاوية الأموي وبقيت عنده إلى أن ماتت.

واشتهرت عجفاء بنحولها ولكنها كانت عندما تبدأ في الغناء تأخذ بمجامع القلوب وتأسر الأفئدة ومن أرق ما كانت تغنيه:

يا طول ليلي أعالج الشقاء إذ حل كل الأوبة الحرما
ما كنت أخشى فراقكم أبداً فالיום أمسى فراقكم عزماً
وكان الناس من الوجهاء يترددون على منزل سيدها الأول يتذوقون
حلاوة صوتها فأخذهم الطرب أيما مأخذ بغنائها. واشتراها بعد ذلك عبد
الرحمن بن معاوية صاحب الأندلس كما أسلفنا فانقطعت أخبارها بعد ذلك.

عُريب

كانت عُريب مغنية فائقة المكانة، وشاعرة فذة، كما امتازت أيضاً بركة الحديث وكان خطها جميلاً. وكانت آية في الحسن والجمال والظرف، وكانت تتقن الإيقاع على العود وتحسن رواية الشعر والأدب. ولم يعرف بين القيان والجواري نظير لعريب بعد القيان الحجازيات أمثال عزة المليء وسلامة الزرقاء ومن جرى مجراهن على قلة عددهن وكانت فيها من المزايا التي وصفناها ما ليس يوجد عند غيرها من جواري الخلفاء ومن نشأ في قصور الخلافة وغذى برقيق العيش الذي لا يدانيه عيش الحجاز والنشء بين العامة، وقد شهد لها بذلك من لا تحتاج شهادته إلى توكيد.

وكانت عريب لعبد الله بن إسماعيل صاحب مراكب الرشيد وهو الذي رباها وأدبها وعلمها الغناء.

ويقول صاحب الأغاني من حديث إسماعيل بن الحسين خال المعتصم أن عريب هي ابنة جعفر بن يحيى البرمكي وأن البرامكة لما انتبهوا ودالت دولتهم سرقوا وهي صغيرة وقيل أن أم عريب كانت تسمى فاطمة وهي التي تزوجها جعفر البرمكي وأنجب منها عريب، ولكن زواجه بها لم يذع لضالة نسبها ويقال أن أم عريب ماتت في حياة جعفر فأرسل عريب إلى امرأة نصرانية وجعلها مربية لها فلما وقعت حادثة البرامكة باعها المربية إلى أحد الناس فباعها بدورها إلى صاحب المراكب. ويقال كذلك أن الفضل بن

مروان كان إذا نظر إلى قدمي عريب شبههما بقدمي جعفر - أي والدها - ويقول أبو الفرج الأصبهاني نقلاً عن الرواة الثقات أنه ما رثيت امرأة أضرب من عريب على العود ولا أحسن صنعة ولا أجمل وجهاً ولا أخف روحاً ولا أحسن خطاباً ولا أسرع جواباً ولا ألعب بالشطرنج والنرد وقد قال هذا كل من رآها وسمعها في دار المأمون.

وكان إسحاق الموصلي يعظم شأن عريب ويعرف تلحينها بين عشرات الألحان لما امتازت به من الإعجاز والإحكام في الغناء والتلحين والأداء القوي الرائع. ويقال أنها لحت ألف لحن وقيل أكثر من ذلك.

وحدث أن دخل ابن هشام على المعتز وهو يشرب وعريب تغني فقال له يا ابن هشام غن، فقال تبت عن الغناء منذ قتل سيدي المتوكل فقالت له عريب: "قد والله أحسنت حيث تبت فإن غناءك كان قليل المعنى لا متقناً ولا صحيحاً ولا طرياً" فأضحكت أهل المجلس.

وقيل إن مولى عريب خرج إلى البصرة وأدبها وخرجها وعلمها الخط والنحو الشعر والغناء فبرعت في ذلك كله وتزايدت حتى قالت الشعر وكان لمولاه صديق يدعى حاتم فعشقه عريب ولم تنزل تراسله حتى هربت بالليل من منزل سيدها بأن اتخذت بالليل سلماً من حبال نزلت به بعد أن لفت ثيابها وأخذتها معها ثم تسورت الحائط ولما مضت إلى منزل حاتم مكثت عنده فترة من الزمان. ويقال أنها لما صارت عنده بعث حاتم إلى مولاه يستعير منه عودها فأعاره عودها وهو لا يعلم أنها عنده. وبعد أن ملت حاتماً هربت منه أيضاً فكانت تغني عند أقوام

عرفتهم ببغداد متسترة متخفية حتى كشف أمرها قريب لمولاه المراكبي وهي تغني ببستان مع قوم من المعجبين بها فبعث ينبئ مولاه بأمرها فجاء المراكبي وأخذها وضربها مائة مفرقة وهي تصيح: يا هذا أنا لست أصبر عليك.. إنني امرأة حرة وإن كنت مملوكة فبعني.. فلما كان اليوم التالي ندم على ما فعله وسار إليها وقبل رأسها ورجلها ووهب لها عشرة آلاف درهم ثم بلغ محمد الأمين خبرها فأخذها منه. وقصة حياتها سلسلة عجيبة من الهروب والتستر بين المراكبي تارة وبين الخليفة الأمين تارة أخرى وبين غيرهما أيضاً وقد قيلت عنها في تلك المناسبات أشعار كثيرة ونال بعض الشعراء من سمعتها في أشعارهم.

وقد اشتراها المأمون بخمسة آلاف درهم وتعلق بها ومال نحوها وقيل أنه لما مات المأمون بيعت في ميراثه ولم يبع له عبد ولا أمة غيرها فاشتراها المعتصم بمائة ألف درهم ثم اعتقها. وقيل أيضاً أن المأمون اشتراها بخمسة آلاف دينار ثم دعا مولاه المراكبي عبد الله بن إسماعيل وقال له: لولا أنني حلفت أن لا أشتري مملوكاً بأكثر من هذا لزدتك ولكني سأوليك عملاً تكسب منه أضعاف هذا الثمن ورمي إليه بخاتمين من ياقوت أحمر قيمتهما ألفا دينار وخلع عليه خلعة سنية فقال المراكبي: يا سيدي إنما ينتفع الأحياء بمثل هذا وأما أنا فأني ميت لا محالة لأن هذه الجارية كانت حياتي وخرج من حضرة المأمون فاختلط عقله ومات بعد أربعين يوماً.

ولما صارت عريب عند المأمون احتالت حتى واصلت محمد بن حامد وأحبته بل هامت به هيماً شديداً ثم أنجبت منه بنتاً فلما بلغ المأمون ذلك غضب وأمر بالباسها جبة صوف وحبسها في مكان قذر مظلم شهراً كاملاً

لا ترى فيه الضوء ويدخل إليها الخبز والملح والماء من تحت الباب كل يوم.. وأخيراً رق لحالها وأمر بإخراجها فلما فتح الباب وأخرجت لم تتكلم بكلمة ثم اندفعت تغني:

لو كان يقدر أن ييثك ما به لرأيت أحسن عاتب يتعجب
حجبه عن بصري فمثل شخصه في القلب فهو محجب لا يحجب
فبلغ ذلك المأمون فعجب منها وقال لن يصلح أمرها أبداً وزوجها
إياه ومن شعرها في حبيبها محمد بن حامد:

ويلي عليك ومنكا وقعت في الحق شكا
زعمت أني خئون جوراً علي وإفكا
فأبدل الله ما بي من ذلة الحب نسكا

ومن أخبارها مع الخليفة المأمون أنه عتب عليها في بعض الأمور ثم هجرها أياماً، ثم اعتكف لمرض أصابها فذهب إليها ليعدوها وسألها: كيف وجدت طعم الهجر؟ فقالت: يا أمير المؤمنين لولا مرارة الهجر لما عرفت حلاوة الوصل ومن ذم بدء الغضب حمد عاقبة الرضا. فخرج المأمون إلى جلسائه وحدثهم بردها البليغ.

وقال أحمد بن أبي داود جرى بين عريب والمأمون حديث فكلهما المأمون في شيء غضبت منه فهجرته أياماً، ثم طلب المأمون من أحمد ابن أبي داود أن يصلحها فلما كلمها في ذلك أنشدت:

ونخلط الهجر بالوصال ولا يدخل في الصلح بيننا أحد

فلما سمع المأمون ذلك دخل إليها وصالحها.
وأخبار عريب حافلة بألوان رائعة تنم على أن تلك الشخصية
الفذة بين الجواري المغنيات كانت في مكان الصدارة وكانت روحها المتوَّبة
المتقلبة سبباً في مغامراتها العديدة التي حفلت بها حياتها الطويلة.
وماتت عريب ولها من العمر ست وتسعون سنة.

@booka

عزة الميلاء

تعد عزة الميلاء أقدم من غنى الغناء الموقع من النساء الحجازيات، وماتت قبل جميلة المغنية الحجازية وكانت عزة من أجمل النساء، وسميت الميلاء لتمايلها في مشيتها، وكانت تجيد الضرب على العود، مطبوعة على الغناء وتلقنت من بعض مشاهير المغنين الألحان الفارسية فاستخرجت منها ألحاناً عجيبة فهي أول من فتن أهل المدينة بالغناء وحرص النساء والرجال عليه.

وكان مشايخ أهل المدينة إذا ذكروا عزة.. قالوا: لله درها ما كان أحسن غناءها وأرق صوتها وأندى حلقها وأحسن ضربها بالمزاهر والمعازف وسائر آلات الطرب. وما كان أجمل وجهها وأظرف لسانها وأقرب مجلسها وأكرم خلقها وأسخى نفسها وأحسن مساعدتها.

قال طويس يصف عزة: هي سيدة من غنى من النساء مع جمال بارع وخلق فاضل وإسلام لا يشوبه دنس تأمر بالخير وهي من أهله وتنهي عن السوء وهي مجانبة له فناهيك ما كان أنبلها وأنبل مجلسها... وكانت إذا جلست جلوساً عاماً فكأن الطير على رءوس أهل مجلسها من تكلم أو تحرك نقر رأسه.

ويعد كلام طويس هذا عن عزة الميلاء له قيمته إذ أنه قلما سلم أحد من لسان طويس.

وقال معبد أنه أتى عزة يوماً وهي عند جميلة وقد أسفت وهي تغني

على معزف شعراً مطلعته:

علاني وعللا صاحبيا واسقياني من المروق ريا

فأخذ الحاضرون طرباً من غنائها. ويتساءل معبد إذا كان هذا غناءها
وقد كبرت سنّها فكيف بها وهي شابة؟

وقال بعض الرواة: كانت عزة مولاة لنا وكانت عفيفة جميلة وكان
الشعراء الأفذاذ ومنهم عمر بن أبي ربيعة يغشونها في منزلها فتغنيهم
وغنت يوماً عمر بن أبي ربيعة لحناً لها في شيء من شعره فشق ثيابه
وصاح صيحة عظيمة صعق معها. فلما استفاق قالت له: لغيرك الجهل يا
أبا الخطاب فقال: إني سمعت والله ما لم أملك معه نفس ولا عقلي.

وكان حسان بن ثابت معجباً بعزة الميلاء وكان يقدمها على سائر
قيان المدينة وحدث لأحد النساك أن سمع جارية تغني: بانت سعاد
وأمسى حبليها وانقطعا

فذهل الناسك من هذا الغناء فلما أفاق لأمه بعض الناس على ذلك
وهو الناسك الورع فتمثل يقول الشاعر: يلومني فيك أقوام أجالسهم
فما أبالي أطار اللوم أم وقعا

فلما قيل للناسك أن الغناء الذي سمعه هو لعزة الميلاء فما بالك إذا
سمعتة منها شخصياً.. فتمنى أن يسمعه منها فأحضر إليها فغنته عزة
فصعق الرجل وخر مغشياً عليه، فنضح وجهه بالماء، فلما أفاق، قال له
بعضهم: أبلغ بك التأثير هذا الحد؟ فقال الناسك وما خفي عليك أكثر.

فلما رأى ذلك عبد الله بن جعفر أهده الجارية فقبل الناسك يديه
ورجليه وقال له: أمت عيني وأحييت نفسي وتركنتني أعيش بين قومي
ورددت إلي عقلي فوهبه عبد الله مبلغاً كبيراً من المال حتى يستطيع
الإنفاق منه عليها فأخذها وانصرف شاكراً.

وكان ابن عتيق معجباً بعزة الميلاء فأتى يوماً عند عبد الله بن
جعفر فقال له بأبي أنت وأمي هل لك في عزة فقد اشتقت إليها قال أنا
اليوم مشغول فقال بأمي أنت وأبي أنها لا تنشط إلا بحضورك فأقسمت
عليك إلا ساعدتني وتركت شغلك ففعل فأتياها ورسول الأمير على بابها
يقول لها: دعي الغناء فقد ضج أهل المدينة منك وقالوا فتننت رجالهم
ونساءهم فقال ابن جعفر لرسول الأمير فقل له عني أقسم عليك إلا
ناديت في المدينة أيها رجل أو امرأة فتننت بسبب عزة إلا كشف نفسه
بذلك لتعرفه ويظهر لنا ولك أمره فنادى الرسول بذلك فما أظهر أحد
نفسه ودخل ابن جعفر إليها وابن أبي عتيق معه فقال لها لا يهولنك ما
سمعت فغنينا فغننتهما:

إنا محبوبك فاسلم أيها الطلل وإن بليت وإن طالت بك الطيل
فاهتز ابن أبي عتيق فقال ابن جعفر ما أراني أدرك ركابك بعد أن
سمعت هذا الصوت من عزة.. وظلت عزة تحيا حياة هائلة سعيدة
منعمة طيلة حياتها.

عمارة

كانت عمارة من المشهورات بين نساء عصرها فتنة وجمالاً، وكانت متمكنة في الغناء وكان سيدها ويدعى ابن جعفر يحبها حباً شديداً ولا يستطيع فراقها وحدث أن قدم إلى معاوية في إحدى السنين لأخذ حق له فزاره يزيد بن معاوية فغنت الجارية بحضرته فأخذت بمجامع قلبه وأحبها وكان يزيد رجلاً داهية فكتم أمرها فلما أفضت إليه الخلافة استشار أهل سره في أمرها وأنه مشغوف بها فقالوا له أن مكانة ابن جعفر عظيمة وقد كان له قدر كبير عند والدك ولا نأمن عليك في ذلك واجتهد يزيد في تدبير أمره حتى ظهر له.. إذ حضر إليه رجل عراقي معروف بالدهاء وسعة الحيلة فأطلعه يزيد على أمره فقال له العراقي: مكني مما أريد ولك علي أن آتيك بها فقال لك ذلك، دبر بحيلتك كما تشاء ثم أعطاه مالاً وثياباً وجواهر، وخرج العراقي كبعض التجار حتى نزل بساحة ابن جعفر وبلغه فأحسن لقياءه وأخذ العراقي في التودد إليه فأرسل بقماش وهدايا تزيد علي ألف دينار وسأل ابن جعفر أن يقبلها، ثم زاد العراقي في هداياه حتى صار من ندماء ابن جعفر.

وأراد ابن جعفر أن يظهر له شدة مجاملته له لقاء هداياه فأحضر الجارية لتطربهما، فلما غنت أعجب بها العراقي حتى قال ما ظننت أن في الدنيا مثل هذه فقال له كم تساوي عندك فقال العراقي: الخلافة.. فقال عبد الله تقول ذلك لتزين لي شأنها وتطلب بذلك سروري؟ فقال العراقي يا

سيدي أنا تاجر أجمع الدرهم ولو بعثنيها بعشرة آلاف دينار لأخذتها فأجابه ابن جعفر: لقد بعثك إياها فقال العراقي على الفور: لقد اشتريت وقام العراقي وقدم له المال فقال ابن جعفر أنا كنت مازحاً فقال له: يا سيدي أنت تعلم أن المزاح في البيع جد وهذا لا يليق بمثلك وأنت معروف بالكرم والصلات فكيف ترضى أن يشيع عنك مثل هذا وطال بينهما الحديث إلى أن خدعه العراقي فأخرجها ابن جعفر له وهو كالمجنون لا يملك نفسه فرحل بها العراقي في يومه وظل ابن جعفر حزينا كاسف البال لا يهدأ فلما دخل العراقي الشام وجد يزيد قد مات فقابل ابنه معاوية وقص عليه قصته وكان معاوية بن يزيد رجلاً صالحاً فقال له: اخرج عني بها فلا تريني وجهك فخرج العراقي بعد أن أفهم الجارية أنه كان قد أخذها للخليفة فاستترت فلم ير لها وجهاً فلما قال له معاوية ما قال جاء إليها وقال لها لقد صرت لي ولكن فاستتري فإني معيدك إلى مولاك ثم رحل بها حتى دخل على ابن جعفر فلما التقى به أخبره بحقيقة الموضوع وأنه لم يكن تاجراً ولكن كان هدفه الجارية ليزيد وأنه حين رآه قد مات لم ير نفسه أهلاً لها فأعادها إليه ولم ير لها وجهاً ثم أخذها فسلمها إليه.. ولما التقى ابن جعفر وجاريته عمارة تعانقاً وخرا مغشيا عليهما من فرط التأثر ثم أدخلها إلى مكانها الأول.

ورفع ابن جعفر منزلة العراقي حتى صار أعظم الناس عنده ووهب له مالاً كثيراً وانصرف.

عوان

هي جارية سليمان بن عبد الملك وكان مولها يحبها حباً شديداً
وهي مشهورة بحسنها وفصاحتها وكان سليمان يغار عليها وكان له فارس
يدعى سنان يخرج معه في جولاته وكان سنان معروفاً بالشجاعة كما كان
حسن الغناء، وكان يتركه أحياناً لحراسة جاريته وهو يعلم شدة غيرة
سليمان عليها...

وذات ليلة زار سنان بعض الضيوف في قصر سليمان فأكرمهم فقالوا
له: يا سنان إنك لم تكرمنا ما لم تسمعنا الغناء وكانت الخمر قد أخذت
بلبه فأنشد لهم أبياتاً من الشعر مطلعها:

محبوبة سمعت صوتي فأرقها في آخر الليل لما بلها السحر
فلما سمع سليمان الصوت خرج فرعاً يتفهمه وتوجه إلى عوان فرآها
مستيقظة فلما فطنت إلى حالته وأنه يهتز من فرط الغيرة أبدت له
نفورها من ذلك الصوت قائلة:

ألا رب صوت جاءني من مشوه قبيح المحيا واضع الأب والجد
فسكن ما لسليمان من الغيرة وقال لها: إذن فقد راعك صوته فقالت
أجل يا أمير المؤمنين فأقسم ليقتلنه فأرسلت عوان عبداً يحذر سنان
وقالت للعبد إن لحقته فلك ديتة وأنت حر فسبق رسول سليمان فلما
جاءوا بسنان إلى سليمان نظر إليه وقال له:

- إنك لمجتريء.

فقال سنان: أنا فارسك فاستبقني.

فقال سليمان لا أقتلك ثم أمر به فحصى وظلت عوان عند سليمان
معززة مكرمة إلى أن مات سليمان عنها وآلت إلى خلفه.

@booka

غاية المني جارية المعتصم بن صمادح

كانت غاية المني جارية أندلسية متأدبة ضليعة في فنون الغناء، لها صوت رائع متمكنة في أداء الألحان، وكان أكثر غنائها من ألحان عريب وإسحاق ومعبد. وقيل أن سبب وصولها إلى المعتصم بن صمادح هو أنه لما أدبها وعلمها سيدها قدم بها المعتصم فأراد اختيارها فقال لها ما اسمك فقالت غاية المني فقال لها أجيزي:

اسألوا غاية المنى
من كسا جسمي الضنى
فقلت:

وأراني مولهــــــــــــــاً سيقول الهوى أناط
فاشتراها منه بمائة ألف درهم وكانت مقربة لديه ومحظية عنده إلى
أن ماتت.

جميلة

كانت جميلة تجمع إلى حلاوة الصوت وعذوبته الجمال الفائق والعفاف والكمال وكانت عذبة اللسان وجيزة العبارة أجمع أئمة عصرها من رجال الفن ونسائه على أنها إمام هذا الفن وكان معبد يقول:
- لو لم تكن جميلة لم تكن مغنين ولطالما تحاكم لديها أرباب الفن المجيدون فقصت بينهم بالإنصاف.

قيل، أنها حجت ذات مرة فخرج إلى لقائها كبراء مكة وساداتها ومشاهير مغنيها وقيانها. فكثرت الزحام وأزحمت في أرجاء الحرم الأقدام والتفت الساق على الساق حتى كأنه يوم التلاق. ولما انقضى الحج. اقترح عليها الأمراء عقد مجلس للغناء فقالت ما كنت يا ذوي الفضل لأخلط الجد بالهزل، ثم عادت إلى يثرب مدينة النبي محمد صلى الله عليه وسلم فاستقبلها سراتها وأشرافها يتقدمهم الأطفال والنساء وكان قد صحبها قوم من أعيان مكة فلما حلت دارها أتاها الجميع مهنئين فرحين وغصت الساحات والابهاء واسطح المنازل بالناس واصطف المغنون طبقتين متناوحتين فكان كلما دمدت وشدت علا من الخلق ضجيج يناطح عنان السماء والناس يقولون ما رأينا ولا سمعنا بمثل هذا.

ثم اقترحت على المغنين أن يهذبوا شفعاً ووتراً ففعلوا فكانت تصلح لكل أغلاطه وتريه وجه الإصابة من الطرب طريقاً حتى أدهشت الناس عجباً وحيرتهم وأبكتهم طرباً وصبابة. وظلت هكذا تأخذ بمجامع القلوب

حتى دانت لها الأفئدة من فرط الإعجاب.. مكانة جميلة في الغناء العربي
مكانة أصيلة، بل أنها تعتبر بلا جدال من نابغة الأصيلة التي أخذ عنها
المجيدون والمجيدات.

وقد وضعت جميلة أصولاً في التلحين استنار بها أعلام الفن من
بعدها وساعدتهم تلك الألحان في سلوك طرائقهم الفنية.

@booka

فكيهة

كانت من أحسن الناس صوتاً وأعلمهم في ضروب الغناء والألحان وكانت مغنيات المدينة يأخذن عنها فنون هذا العلم حتى افتتن بها كثيرون من النساء والشبان وقصتها مع تبع بن حسان مشهورة إذ استطاعت أن تنقذ مولاها من القتل وكان تبع يريد أن يقتله ويقتل غيره من كبار أهل المدينة إذ قتل ابنه غيلة بالمدينة فكان يريد أن يقتل كبار أهلها انتقاماً وثأراً لابنه واستطاعت فكيهة بحيلتها أن تدبر أمر هروب مولاها من داره، فلما جاء جنود تبع يطلبونه أخبرتهم بأنه نائم حتى تمكن من الهرب ولما جاءوا مرة أخرى لم يجدوه بعد أن أوسعت أمامه فرصة الفرار بالغناء للجنود.

وعرف بعدئذ تبع أن مولاها هرب وتحصن في إحدى الجهات فجرد له كتيبة من جنده ثم أرسلهم في طلبه وظلوا يحاصرونه ثلاثة أيام وهو يقاتلهم بالنهار ويرميهم بالنبل والحجارة ويرمي إليهم بالليل بالتمر فلما مضت الأيام الثلاثة عاد الجنود إلى سيدهم تبع وقالوا له تبعثنا إلى رجل يقاتلنا بالنهار ويضيفنا بالليل، فخرج تبع منه وتركه وانصرف.

وهكذا استطاعت فكيهة أن تنقذ مولاها من القتل بسعة حيلتها.

فريدة

كانت فريدة جارية للوائق وكانت من المتسمات بالملاحة ورقة الغناء وحدة الفطنة والبديهة الحاضرة وتزوجها المتوكل بعد الواثق. وقال صاحب الأغاني عن محمد بن الحرث أنه قال: كانت لي نوبة في خدمة الواثق كل يوم جمعة فإذا شاء الواثق الطرب أقمت عنده وإذا لم يشأ انصرفت وكان ترتيب نوبتي على هذا النظام زمناً طويلاً. وبينما كنت في منزلي في غير يوم نوبتي أرسل إلى الخليفة من هجموا علي وقالوا لي تعال إلى أمير المؤمنين فقلت هذا غير يوم نوبتي فعلكم أخطأتم فقالوا لي لا داعي لهذا الكلام فقد أمرنا أن لا ندعك تستقر على الأرض فداخلني فزع شديد وخفت أن يكون وشي بي أحد عند الخليفة وأخيراً توجهت إلى دار الخليفة لاتخذ مكاني المعتاد فمنعت وأخذ بيدي الخدم فأدخلوني وعدلوا بي إلى طرق لا أعرفها فزاد ذلك من جزعي وفزعي ثم لم يزل الخدم يسلمونني من خدم إلى خدم حتى أفضيت إلى دار مفروشة الصحن ملبسة الحيطان بالوشى المنسوج ثم أفضيت إلى رواق أرضه وحيطانه ملبسة بمثل ذلك وإذا بالخليفة الواثق في صدر المكان على سرير مرصع بالجواهر وعليه ثياب منسوجة بالذهب وإلى جانبه فريدة جاريته عليها مثل ثيابه وفي حجرها عود فلما رأيته قال جودت والله يا محمد إلينا إلينا..

فقبلت الأرض ثم قلت خيراً يا أمير المؤمنين قال خيراً ترى أما تنظر ما نحن فيه أنا طلبت والله ثالثاً يؤانسنا فلم أر أحق منك فبحياتي بادر

فكل شيئاً من الطعام وبادر إلينا فقلت قد والله يا سيدي أكلت وشربت
أيضاً فقال: اجلس فجلست وقال لمحمد شرباً فأحضر لي ثم قال لفريدة
غني فغنت:

أهابك إجلالاً وما بك قدرة علي ولكن ملء عين حبيبها
وما هجرتك النفس يا ليل أنها قلتك ولا أن قل منك نضييها

فأبدعت في غنائها وظل الواصل يجاذبها وهي في خلال ذلك تغني
المقطوعة بعد المقطوعة وأغني أنا في خلال غنائها وبينما نحن في هذه
اللذة القصوى من الطرب إذا بالخليفة يرفع رجله فيضرب بها صدر فريدة
ضربة فتدحرجت من أعلى السرير إلى الأرض وتفتت عودها ومرت تعدو
وتصيح وبقيت أنا مستطار اللب كالمنزوع الروح ولم أشك أن عينه وقعت
علي وقد نظر إليها ونظرت إلي... وظل الخليفة ساعة مطرقاً إلى الأرض
متحيراً وأطرقت وأنا أتوقع ضرب عنقي وإني لكذلك إذ قال يا محمد...
فوئبت من مكاني، فقال ويحك أرايت أغرب مما تهياً علينا فقلت: يا
سيدي الساعة والله تخرج روعي.. فعلى من أصابنا بالعين لعنة الله...
فما سبب الذنب يا ترى؟ فقال: لا شيء لاشيء.. ولكنني فكرت أن جعفر
يقعد هذا المقعد ويقعد معها كما هي قاعدة معي فلم أطق الصبر
وخامرني ما أخرجني عن صوابي.. فهل لك أن تسري عني.. فقلت: قاتل
الله جعفر ويحيى أمير المؤمنين دائماً..

وقبلت الأرض وسألته أن يردها. فقال لبعض الخدم الواقفين أن
يجيئوا بها.. فعادت وفي يدها عودها وعليها غير الثياب التي كانت عليها

من قبل فلما رآها جذبها وعانقها فبكت وجعل هو يبكي واندفعت أنا في البكاء فقالت ما ذنبي يا مولاي وبأي شيء استوجبت غضبك فأعادا عليها ما قاله لي وهو يبكي وهي تبكي أيضاً فقالت سألتك بالله يا أمير المؤمنين إلا ضربت عنقي الآن وأرحتني من هذا الفكر وأرحت نفسك من الهم بي وجعلت تبكي وهو يبكي ثم مسحاً أعينها ورجعت إلى مكانها وأوماً إلى الخدم بإشارة خاصة فمضوا ثم أحضروا أكياساً فيها دراهم ودنانير وورزماً فيها ثياب كثيرة وجاء خادم بدرج ففتحه وأخرج منه عقداً ما رأيت قط مثل جواهره فألبسها إياها وأحضرت بدرة فيها عشرة آلاف درهم فجعلت بين يدي وخمسة تخوت فيها ثياب وعدنا إلى أمرنا وإلى أحسن مما كنا فيه ولم نزل كذلك إلى الليل...

ثم تفرقنا وضرب الدهر ضربة وتقلد المتوكل الخلافة.. وبينما أنا في منزلي بعد نوبتي إذ هجم علي رسل الخليفة فما أمهلوني حتى ركبت وصرت إلى دار الخليفة فأدخلت والله الحجرة ذاتها.. وإذا المتوكل في الموضع الذي كان فيه الواصل على السرير بعينه وإلى جانبه فريدة فلما رأيته قال: ويحك أما ترى ما أنا فيه.. أنها ترفض أن تغني لي فقلت لها: سبحان الله أتخالفين بيدك وسيدنا.. فغنت بعد تردد غناء مؤثراً.

ولكنها لم تلبث بعد أن أهاجها التأثر حتى ضربت بالعود الأرض ورمت بنفسها عن السرير ومرت تعدو وهي تصيح وا سيداه، فقال الخليفة: ويحك ما هذا؟ فقلت لا أدري والله يا سيدي فقال فماذا ترى فقلت أرى أن أنصرف أنا وتحضر هي ومعها غيرها. ولم أعرف ماذا فعل الخليفة بعد انصرافي.

وعاشت فريدة طيلة حياتها راضية هائلة في بيت الخلافة وقد
أشاعت فيه زمناً طويلاً بهجة وطرباً بفنّها الجميل ومقدرتها وغنائها
الشجي ونوادرها الطريفة.

@booka

قلم الصالحية

كانت جارية جميلة، بديعة التكوين، حسنة الغناء وضرب العود أخذت منها من إبراهيم الموصللي وابنه إسحاق وغيرهما من مشاهير المغنين وكانت قلم جارية لصالح بن عبد الوهاب واشتراها الوثائق منه، وكان الوثائق قد جمع أرباب الغناء فغنى أحدهم بين يديه لحناً لقلم في بعض الأشعار وهي:

في انقباض وحشمة فإذا صادفت أهل الوفا والكرم
أرسلت نفسي على سجيته وقلت ما قلت غير محتشم
فسأل الوثائق من لحن هذا الشعر؟ ف قيل له: قلم الصالحية جارية صالح بن عبد الوهاب فبعث إلى محمد بن عبد الملك الزيات فأحضره وقال له: ويلك من هو صالح بن عبد الوهاب هذا؟ فأخبره به فقال له ابعث له وأحضره هو وجاريته فقدا علي الوثائق، ودخلت قلم على الوثائق فأمرها بالجلوس والغناء فغنت فاستحسن غناءها وأمر بابتاعها فقال صالح أبيعها بمائة ألف دينار وولاية مصر فغضب الوثائق من ذلك وردھا عليه ثم غنى بعد ذلك زرنب الكبير في مجلس الوثائق لحناً لقلم وهو:

أبت دار الأوبة أن تبينا أجذك ما رأيت لها معينا
تقطع نفسه من حب ليلي نفوساً ما ابتن ولا جزيئا
فسأل الوثائق لمن الغناء؟ ف قيل لقلم الصالحية فبعث إلى ابن الزيات

لإحضار صالح ومعه قلم فلما حضرا دخلت على الواثق فأمرها أن تغنيه هذا اللحن فأحسنت، وبعث إلى صالح فأحضره فلما مثل بين يدي الخليفة قال: أما قد وقعت الرغبة فيها من أمير المؤمنين فلا يجوز لي أن أملكها.. ولهذا فإني أهديها إلى أمير المؤمنين. فقال له الواثق: قد قبلتها... وأمر ابن الزيات أن يدفع له خمسة آلاف دينار، فلم يعطه ابن الزيات المال ومضى يماطله فوجه صالح إلى قلمه من أخبرها بذلك فغنت الواثق في صباح أحد الأيام لحنًا جميلًا فقال لها بارك الله فيك وفيمن ربك فقالت: يا سيدي وما نفع من رباني مني إلا التعب. والغرم علي والخروج مني صفر اليدين.. قال: أو لم أمر له بخمسة آلاف دينار؟ قالت: بلى ولكن ابن الزيات لم يعطه شيئاً فدعا بخادم من خاصة الخدم ووقع إلى ابن الزيات بحمل خمسة آلاف دينار إلى صالح وخمسة آلاف أخرى معها أيضاً.. فلما رأى ابن الزيات ذلك أخذ يتودد إلى صالح ثم أعطاه الخمسة آلاف الأولى وقال له سأدفع لك الخمسة آلاف الثانية بعد أسبوع فقام صالح وتناساه ابن الزيات ثم علم أن صالح سيكرر شكواه منه فبعث إليه المال وأخذ إيصالاً منه بعد أن ماطله كثيراً واشترى صالح بالمال ضيعة.

قمر

كانت جارية لإبراهيم بن حجاج اللخمي حاكم أشبيلية، وكانت من أهل الفصاحة والبيان والمعرفة بصناعة التلحين، جلبت إليه من بغداد واجتمعت فيها صفات كريمة فكانت أديبة ظريفة وراوية قديرة مع حدة البديهة وجمال رائع وكانت إلى ذلك تقرض الشعر ومن شعرها في امتداح سيدها:

ما في المقارب من كريم أريحي إلا حليف الجود أبرهم
إني حللت لديه منزل نعمة كل المنازل ما عداه في حلم
ولها شعر كثير ينم على دقة إحساسها ومن ذلك ما قالت تشوقاً إلى بغداد:

أهأً على بغداد وعراقها وظبائها والسحر في أحداقها
ومحلها عند الفرات بأوجه تبدو أهلتها على أطواقها
متبخرات في النعيم كأنما خلق الهوى العذرى من أخلاقها
نفسى الفداء لها فأى محاسن في الدهر تشرق من سنى إشراقها
ويبدو في هذا الشعر وفي غيرها مدى تمكنها في الأدب وخذقها وتصويرها البديع للأشياء ورقة خيالها.

ومن حسن صوتها وجمالها وتهذيبها، حظيت عند مولاها وبقيت عنده منعمة إلى أن ماتت فأسف عليها أسفاً شديداً.

متيم الهاشمية

كانت من مولدات البصرة وبها نشأت وتأدبت وغنت وأخذت عن إسحاق وعن أبيه قبله وعن طبقتيها من المغنين وكانت متيم إحدى تلميذات بذل المغنية. وكانت متيم جارية لعلي بن هشام. وكانت من أحسن الناس وجهاً وغناءً وأدباً وكانت تقول شعراً مستحسناً ونالت حظوة كبيرة عند علي بن هشام وتقدمت عنده على جواريه أجمع وهي أم أولاده كلهم فولدت له صفية وشهرتها أم العباس ثم ولدت له محمداً ويعرف بأبي عبد الله ثم ولدت بعده ابناً يقال له هارون ويعرف بأبي جعفر وقد سماه المأمون وكناه بهذا الاسم.

ولما توفي علي بن هشام عتقت كان المأمون يبعث إليها فتجيبه وتغنيه. ونالت عند المعتصم أيضاً حظوة عظيمة. وفي ذات يوم كانت متيم جالسة بين يدي المعتصم وإبراهيم بن المهدي حاضر فغنت:

لزينب طيف تعتريني طوارقه هدوا إذا ما النجم لاح لواحقه

فأعجب إبراهيم بن المهدي بتلحينها وأشار عليها أن تعيده فقالت متين للمعتصم: يا سيدي إبراهيم يستعيدني الصوت وكأني أراه يريد أن يأخذه فقال لا تعيده فلما كان بعد أيام كان إبراهيم حاضراً مجلس المعتصم ومتيم غائبة فانصرف إبراهيم بعد حين إلى منزله ومتيم في منزلها بالميدان وطريقه عليها وهي في منظر لها مشرفة على الطريق فسمعها تغني هذا اللحن ف ضرب باب المنظره بقرعة وقال لها: قد أخذناه بلا حمدك.

ورفض علي بن هشام أن يهبها للمأمون الذي كان معجباً بها وبغنائها
ولما رأى إصرار المأمون وإلحاحه في طلبها وجعلها تحمل منه فيئس المأمون
منها ويقال أن ذلك كان سبباً في غضبه على ابن هشام بعد ذلك حتى قتله..
وحدث أن كان مولاهما يحادثها مرة فأجابته جواباً لم يرضه فدفع يده إلى
صدرها فغضبت ونهضت وتثاقلت عن الخروج إليه فكتب إليها:

فليت يدي بانث غداة مددتها إليك ولم ترجع بكف وساعد
فإن يرجع الرحمن ما كان بيننا فلست إلى يوم التنادي بعائد
فصنعت له لحناً وخرجت إليه وصالحته وغنته الصوت. وعبت عليه
مرة فتمادى عتبها وترضاها فلم ترض فقال الدلال يدعو إلى الملال ورب
هجر دعا إلى صبر وإنما سمى القلب قلباً لتقلبه ولقد صدق من قال:
ما أراني إلا سأهجر من ليس يراني أقوى على الهجران
قد حدا بي إلى الجفاء وفائي ما أضر الوفاء بالإنسان
فخرجت إليه من وقتها

وقال الهاشمي: كانت متيم تحبني، محبة الأخت لأخيها وكانت
تعرف أنني أحب النبق فبينما أنا جالس في داري في ذات ليلة عند السحر، وإذا
بباب داري يدق فقليل من هذا فقالوا خادم متيم يريد أن يدخل إليك فأذنت
له فدخل ومعه صينية فيها نبق. فقال لي أن متيم تقرئك السلام وتقول لك
أنها كانت عند أمير المؤمنين المعتصم بالله فجاءه نبق من أحسن ما
يكون فأمر أن يوضع في صينية ويقدموها إلى متيم ففعلوا فأمرتني أن آتي
بها إليك ودفعت إلي بمبلغ من المال حتى أدفعها للحراس ليخرجوني بها

وها هي عند المعتصم.

وزارت جدة علي بن هشام حفيدها فقالت له أعرض على جواربك
فعرضهن عليها ثم جلس على الشراب وغنت مقيم وأطالت جدته الجلوس
فلم يستطع ابن هشام التبسط مع جواريه كما كان يفعل دائماً فقال
هذين البيتين:

أبقى على هذا وأنت قريبة وقد متع الزوار بعض التكلم
سلام عليكم لا سلام مودع ولكن سلام من حبيب مقيم
وكتبها في رقعة ورمى بها مقيم فأخذتها ونهضت إلى الصلاة، ثم
عادت بعد أن لحت البيتين وغنتهما ففهمت جدة ابن هشام وقالت: ما
أرانا إلا قد أثقلنا عليكم اليوم وأمرت الجواري فحملن محفتها وأمرت
بجوائز للجواري وساوت بينهن وأمرت لمقيم بمائة ألف درهم.

ولما قتل علي بن هشام حزنت عليه مقيم حزناً شديداً وقالت فيه
شعراً مؤثراً.. وانتابها الجزع على فقدته وقالت مقيم في ذلك أن المعتصم
بعث إليها بعد قدومه بغداد فذهبت إليه فأمرها بالغناء فغنت:

هل مسعد لبكاء بعبرة أو دماء
وذا لفقد خليل لسادة نجباء

فدمعت عيناه تأثراً وطلب إليها أن تغني غيره فغنت:

لا تأمن الموت في حل وفي حرم إن المنيات تفني كل إنسان
وأسلك طريقك هو لا غير مكترث فسوف يأتيك ما يجني لك الجاني

فقال لها المعتصم: لولا أني أعلم أنك غنيت بما في قلبك لصاحبك
وإنك لم تنذريني لمثلت بك ولكن خذوا بيدها فأخرجوها فخرجت.
ولما مات علي بن هشام جاء النوائح فطرح بعض من حضر من
مغنياته عليهن نواحاً من صنع متيم وكان حسناً جداً فظلت النوائح
ترددنه لحسنه وجودته وكانت زين حاضرة فاستحسنته جداً وقالت رضي
الله عنك يا متيم كنت علماً في السرور وأنت علم في المصائب. وماتت
متيم هي وإبراهيم بن المهدي وبذل في آن واحد وكانت للمعتصم جارية
ماجنة فقالت: يا سيدي أظن أن في الجنة عرساً فطلبوا هؤلاء فنهاها
المعتصم عن هذا القول وأنكره فلما كان بعد أيام وقع حريق في حجرة
تلك الجارية الماجنة فاحترق كل ما تملكه وسمع المعتصم الجلبة فقال ما
هذا؟ فأحيط بما حدث فدعا بها فقال ما قصتك فبكت وقالت يا سيدي
احترق كل ما أملك فقال لها لا تجزعي فإن هذا لم يحترق وإنما استعاره
أصحاب ذلك العرس.

نعمى

هي جارية ظريف بن نعيم وكانت أديبة رقيقة ذات جمال باهر
وكان سيدها يحبها حباً جمّاً، وحدث أن كان جالساً في منزله فإذا بشرطة
الحجاج قد دخلوا عليه فقبضوا عليه وأدخلوه على الحجاج فقال له: علي
بالجارية فقال له صاحبها: أصلح الله الأمير إنها روحي فلا تكن سبب
هلاكي.

فأمر الحجاج بسجنه وأرسل لإحضار الجارية فلما رآها أرسلها في تلك
الليلة إلى الخليفة عبد الملك، وأما صاحبها فقد أطلق الحجاج سراحه بعد
ذلك وهو مأخوذ اللب مستطار العقل لفقده جاريته الحبيبة ثم سافر إلى
دمشق متوجعاً وأراد أن يحتال ليقابل جاريته فلم يستطع.. فلما اشتد
وجده أرسل إلى الخليفة يلتمس مقابلته وأخبره بقصته فدهش الخليفة
من جرأته وغضب ولكنه استدعاه وأحضر الجارية فطلب صاحبها من
جاريته أن تغنيه قول قيس بن ذريح:

لقد كنت حسب النفس لو دام وصلنا ولكنها الدنيا متاع غرور
سأبكي على نفسي بعين غزيرة بكاء حزين في الوثاق أسير
فلما غنت هذا الشعر مزق صاحبها ثيابه ثم قال لها غني قول
جميل:

فيا ليت شعري هل أبيتن ليلة كليلتنا حتى نرى ساطع الفجر
تجود علينا بالحديث وتارة تجود علينا بالرضاب من الثغر
فلما غنت ذلك غشى عليه تأثراً فلما أفاق قال لها غني قول المجنون:

عرضت على نفسي العزاء فقبل لي من الآن فإياي لا أعزك من صبر
إذاً بأن من تهوى وأصبح نائياً فلا شيء أجدي من حلولك القبر
فلما غنت هذا قام فألقى بنفسه من شاهق فمات، فقال الخليفة
عبد الملك: أيعظن أني أخرجت جارية وأعود فيها.. خذها يا غلام فأعطها
لورثته أو فتصدقوا بها عليه فلما نزلوا بها نظرت إلى حفيرة معدة للسيل
فجذبت يدها من الغلام وهي تقول:
من مات عشقاً فليمت هكذا لا خير في عشق بلا موت
وأخيراً ألقى بنفسها في الحفيرة فماتت...

هند

هي جارية محمد بن عبد الله مسلم الشاطبي وكانت أدبية
قديرة وشاعرة مطبوعة وكانت تحسن ضرب العود وقد حدث أن كتب لها
أحد المعجبين بها ويدعى أبو عامر يدعوها للحضور هذين البيتين:

يا هند هل لك في زيارة فتية نبذوا المحارم غير شرب السلسل
سمعوا البلابل قد شدت فتذكروا نغمات عودك في الثقل الأول
فردت عليه في ظهر رقعته قائلة:

يا سيداً حاز العلا عن سادة شم الأنوف من الطراز الأول
حسبي من الإسراع نحوك أنني كنت الجواب مع الرسول المقبل
وذهبت إليه كما وعدت وأمضوا ليلة قلما يسمح بمثلها الدهر حتى
تبلغ نور الفجر بعد أن أبدعت هند في عزفها وغنائها إبداعاً يفوق كل
وصف فملكت عليهم نفوسهم إعجاباً بها وقد انتقلت بهم بقدرتها الفنية
الفائقة من لحن إلى آخر يزيد عن سابقه حلاوة وقوة تعبير وإعجاز ورقة..
ولما بزغ الصباح تفرقوا وقد انتشوا بفنها وأخذوا بما سمعوا وقد تمنوا لو
طالت ليلتهم أبد الدهر إلى جانبها يرشفون من حلاوة صوتها وعزفها على
العود.

وظلت هند محتفظة طيلة حياتها بقدرتها في العزف وحدة ذهنها
وحضور بديتها وظرفها وحسن معاشرتها عدا ما امتازت به من التمكن في
فنون الشعر والأدب.

@booka.

الفهرس

5.....تقديم

الكتاب الأول

الجواري

13.....الخدر العربي

25.....الرقيق

37.....جواري الخمارات

51.....الجواري المثقفات

64.....جواري القصور

75.....الجواري السميرات

86.....الجواري في الشرع

الكتاب الثاني

أشهر الجواري والمغنيات

97.....ألمس المغنية

99.....بذل المغنية

101.....برقا جارية علاء الدين

102.....بصيص جارية ابن نفيس

103.....تحفة الزاهدة

105.....تنوسة

106.....جنان

107.....حباة

108.....	دنابير
111.....	الزرقاء
112.....	سلامة القس
114.....	عاتكة
116.....	العبادية
117.....	عبدة الطنبورية
119.....	عتبة
121.....	العجفاء
122.....	عُريب
127.....	عزة الميلاء
130.....	عمارة
132.....	عوان
134.....	غاية المنى جارية المعتصم بن صمادح
135.....	جميلة
137.....	فكيهة
138.....	فريدة
142.....	قلم الصالحية
144.....	قمر
145.....	متيم الهاشمية
149.....	نعمى
151.....	هند

ارتبط عالم الجواري والغلمان بالحياة السياسية في الحضارة العربية الإسلامية بمختلف حقبتها، نتيجة لعلاقة مجموعة هامة من هذه الفئة بأهل السياسة والحكم، ومن المعروف أن الحضور الفعلي للجواري كان مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بالزمان والمكان، إذ كانت جواري العصر العباسي في المشرق والعصر الأموي في الأندلس أكثر تأثيراً في السادة من بقية العصور. حيث برزت في أواسط العصر العباسي أعداد كبيرة من الجواري داخل البلاط العباسي يقمن بخدمة زوجة الخليفة أو الخليفة شخصياً أو لأم الخليفة، وفي بعض الحالات كن يتواجدن جميعهن في قصر الخليفة معاً.

وقد تعددت أدوار الجواري في القصور وتنوعت بتنوع الحقب التاريخية، ولكن المحظية، التي جمعت كل ما أرادته الثقافة في الأنثى، وحدها هي التي استطاعت أن تخلد اسمها في كتب التاريخ إذ أرادت الثقافة من المرأة أن تكون جميلة، ومطوعة، وولودة، وضعيفة أمام الرجل لاهية لها دونه، وشاءت الثقافة السائدة أن تجعل الرجل مستسلماً أمام هذا الصنف من الجواري، ضعيفاً أمام دموعهن، ومسلماً لهنّ مقاليد حياته، فكان هذا مفتاح تدخل النساء محظيات كن أو أمهات في عالم السياسة.

